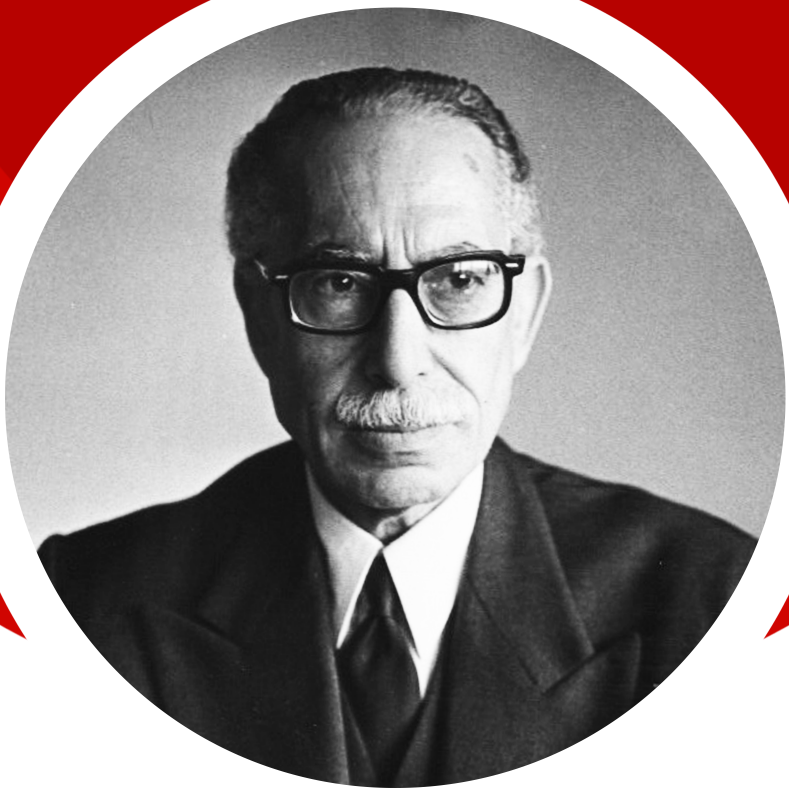

# سلطان الظلام

توفيق الحكيم

# سلطان الظلام

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

# سلطان الظلام

توفيق الحكيم

**الناشر مؤسسة هنداوي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٥ ٣٣٠٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

# المحتويات


| | |
|---|---|
| تمهيد | ٩ |
| تلميذ الموت | ٢٧ |
| الانتصار الخالد | ٣٥ |
| صلاة الملائكة | ٤١ |

«ولكن هذه ساعتكم وسلطان الظلام.»

الإنجيل

# تمهيد

## (١) تأملات حول مصير الإنسانية

هذه الصفحات ليست سوى صيحات، لا أملك غير إطلاقها في هذه الساعات التي لا يستطيع أحدٌ بعد أن يتنبَّأ فيها بمصير الإنسان الحر.

إن الظلام الزاحف على الإنسانية يخيفني. إني لم أزل أتأمل تلك الكلمة التي قالها وكيل خارجية أمريكا «سمنر ويلز» منذ نحو عام: «ليس في مقدورنا أن نتكهَّن بشيء عن احتمال العودة مرةً أخرى إلى ظلام القرون الوسطى، على الأقل فيما يتعلق بشئون الفكر والروح ... إلخ.» إني لم أزل أطرح على نفسي هذا السؤال: هل في الإمكان حقًّا أن يمحق الإنسانيةَ ظلامٌ بعد هذا الشوط الذي قطعَتْه في سبيل النور؟

هل أصدق قول المفكر الألماني «كيسرلنج»: «ما الإنسان إلا مخلوق تتركز فيه قوًى روحية وقوًى أرضية. جوهره العميق، ذلك الذي قد يُعَد خالدًا هو روح خالص. ولكن هنالك حقيقة تسترعي النظر، هي أنه منذ ليل الأزمانِ والأديانُ ما برحت تحض على اتباع تعاليم الروح فهل صادفت في ذلك غير نجاح قليل، بينما كانت نوازع الأرض والدم لا تفرض فقط سلطانها فرضًا بل تقبل أيسر القبول في شيء من الخضوع الطبيعي. هذه الحقيقة وحدها تثبت لنا أن ثمانين في المائة من المخلوق البشري تتألف من العناصر الأرضية التي تدخل في نطاق العالم الحيواني والنباتي.»

ما أقسى هذا الكلام على من يؤمن بالتقدم الإنساني. ينبغي مع الأسف أن نتوقع إذن في كل حين ثورة هذه الثمانين في المائة على العشرين الباقية.

تتمثل لذهني صورة رسمها «جيمس روبنسون»، المفكر الأمريكي، لتطور البشرية ومدى انتقالها من عهد إلى عهد؛ فقد افترض أن: «حياة الإنسانية منذ عصورها الأولى إلى اليوم (وهي التي تقدر أحيانًا بخمسمائة ألف سنة) تبلغ خمسين عامًا فقط رغبة في التبسيط. فماذا وجد؟ وجد أن تسعًا وأربعين سنة من هذه الخمسين قضتها البشرية في حياة الصيد الأولى، ولم تبلغ في نهايتها من حيث المعرفة والإدراك إلا درجة تمكنها من استئناس بعض الحيوان ونسيج بعض الخشن من الثياب. أما في السنة الأخيرة الباقية من عمر الإنسانية، فقد كان ينبغي أن يمضي منها أيضًا ستةُ أشهر قبل أن تُخترع الكتابة التي تم باختراعها وضعُ أساس من أسس الحضارة، ثم ثلاثةُ أشهر أخرى للوصول بالأدب والفن والفلسفة إلى تلك القمم التي بلغناها، ثم شهران للحياة في ظل المسيحية، ولم يتطلب ظهور الطباعة غير ليلة واحدة، وآلة البخار غير أسبوع، ويومَين أو ثلاثة لتخوض البواخر عرض البحار وتقطع القطر شاسع البقاع، ولم يبقَ بعد ذلك غير يوم واحد استكشفت في ليلته البارحة أعاجيب الكهرباء، وأخيرًا لم تبق غير ساعات معدودات كانت كافية لحذق الملاحة في الجو وتحت الماء واستخدام أحدث المخترعات لإثارة حروب عظمى تتكافأ مع تلك الوسائل الجديدة الهائلة.»

ولأتم قول هذا العالم الأمريكي قائلًا: «حروب عظمى قديرة أن تدمر الإنسانية وتعيدها من جديد إلى حيث كانت منذ عام.»

هذا التقدير العجيب لعمر المدَنية الحقيقية في حياة الإنسانية ينبغي أن يملأنا قلقًا على مصير الحضارة. إنها إذن ليست تراثًا أصيلًا كما نظن. إنها ليست مَلَكة متأصلة فينا كما نحب أن نتصور. إنما هي حدث جديد لم يقع في حياتنا البالغة الخمسين إلا منذ ستة أشهر. أفيُستغرب إذن إذا عصف القدر بهذا الحدث وأرجعَنا إلى حيث كنا منذ عام على الأقل؟

نعم. حتى حياتنا اللامعة خلال هذه الشهور الستة الأخيرة ليست في مأمن من طغيان ذلك الخضم الهائل من عشرات الأعوام السابقة. إن ريح تلك الأعوام المظلمة ما تفتأ في كل لحظة تهب على هذه الشمعة الضئيلة التي تنمو في ضوئها المرتجف حضارتنا الناشئة. آه، إن قوة الأرض والدم لمخيفة حقًّا. إنها لتستطيع أن تجذبنا إليها في كل حين كلما أردنا ارتفاعًا!

يحلم العلم الحديث أحيانًا بذلك الاختراع الذي يخرجنا عن جاذبية الأرض، لنحلق بالكواكب الأخرى. أما ينبغي له أن يفكر قبل ذلك في اختراع آخر أعظم وأجدى على الإنسان، ذلك الذي يخرجنا عن جاذبية الأرض والدم في عالم تركيبنا الحيواني، لنلحق بالإنسانية العليا التي يتصورها الفكر المجرد ويحسها الروح الطليق؟

ما دمنا نعيش هكذا تحت سلطان جاذبية الماضي الهائل: جاذبية تسع وأربعين سنة أو (٥٤٩٠٠٠ سنة بالحساب شبه الحقيقي) حياة حيوانية تعيش على الفتك والصيد وشريعة الغابة، فكيف نأمل بهذه السرعة في حياة أرقى تسودها شريعة غير شريعة الغابة؟

يقول «ألدس هكسلي»: لا أحد يطلب إليك أن تكون شيئًا آخر غير مجرد إنسان، أي لا ملاك ولا شيطان؛ إنسان، أي ذلك المخلوق الذي يمشي بمهارة على حبل مشدود، عن يمينه العقل والفكر والضمير وكل ما دخل في نطاق العالم الروحي، وعن يساره الجسد والغريزة والدم وكل ما دخل في نطاق العالم الحيواني. التوازن هو كل المطلوب. وهو أمر عسير المنال.

حقًّا هذا التوازن عسير المنال. كم من الملايين وكم من الأجيال تسقط في الهاوية اليسرى! أما الهاوية اليمنى فلم يقع فيها غير قليل من الأنبياء والقديسين والفلاسفة والشعراء.

في تاريخ الإنسانية عهد صغير مزدهر هو حقًّا من مفاخر الإنسان، ذلك هو عهد الإغريق. أترى الإغريق هم الذين استطاعوا أن يمشوا في توازن عجيب فوق الحبل المشدود؟

ربما كانت فكرة التوازن لا يتميز بها العهد الإغريقي وحده؛ فالحضارة الإسلامية في عصورها الزاهرة هي خير مثال يُقدَّم للتوازن العجيب فوق هذا الصراط المستقيم.

إن معجزة الإغريق في الواقع هي أنهم لأول مرة في تاريخ البشرية حاولوا التخلص من جاذبية الماضي. إذا ذُكِر الإغريق ذُكِر عهد ظهور التفكير الحر والتأمل المجرد. أي ذلك التفكير الذي لا تحده تقاليد ولا سلطات ولا أديان ولا حتى لغات قديمة. كان «بيرون» يقول عن الإغريق: لم تكن لديهم عصور قديمة للمعرفة ولا معرفة للعصور القديمة.

إن النوع البشري محافظ بطبعه كما يرى روبنسون: «فهو لا يفتأ يضع لنفسه قيودًا، هي التي أقعدته في طور البربرية كل هذه الأجيال الساحقة التي عاشها على الأرض، بل هي التي ما تزال تعمل على استمرار بعض مظاهر البربرية حتى في مجتمعنا الحديث؛ فالرجل المحافظ هو على وجه عام رجل أدنى من غيره إلى الحالة البربرية الأولى.» إذا كان في التاريخ إذن شعب «غير محافظ» فهم الإغريق؛ إنهم شعب «الحرية» المختار!

إن العقل البشري بلغ في عهد الإغريق اكتمال تألقه، لأنه تفتح لهواء «الشك». إن «الشك» هو هواء العقل الذي يتنفس به. لأول مرة استطاع الإنسان حقًّا أن يدع هذا الهواء يعبث قليلًا برفات تقاليده المقدسة، ولأول مرة استطاع الإنسان حقًّا أن يخرج بتفكيره قليلًا عن نطاق جاذبية الماضي، ليتأمل ويحلق بعيدًا عن سيطرة الإيمان بالماضي.

على أن العجيب في الأمر هو أن البشرية التي عرفت هذا التألق الفكري استطاعت أن ترجع بعد ذلك إلى ظلام القرون الوسطى، وتركت فضاء «الشك» لتدخل من جديد حظيرة «الإيمان». أترى حياة الإنسانية كحياة الإنسان؟ أتراها مثله تخرج من النهار إلى الليل، ثم تعود إلى النهار من جديد، ثم تدخل في الليل مرة أخرى، وهكذا إلى نهاية الدهور؟

نعم، بعد نهار الإغريق جاء ليل القرون الوسطى، لكن … ليس كل ليل ظلامًا؛ فقد يخيم الظلام على أول الليل ثم يطلع القمر وتتصاعد الأحلام من جوف القلب فتملأ الوجود جمالًا ونورًا من نوع آخر. كذلك القرون الوسطى، لم تعرف الظلام الحالك إلا في أول عهودها. ثم تأججت العقيدة الدينية في النفوس واستيقظ القلب فأبدع جمالًا وشعرًا له مكانه إلى جانب الجمال الذي أبدعه العقل في نهار الإغريق.

وقبل نهار الإغريق ماذا كان؟ كان ليل مصر القديمة المقمر الجميل. كانت حضارة كأنها أحلام العمالقة، خرجت هي الأخرى من وحي القلب وحرارة العقيدة والإيمان.

وبعد ليل القرون الوسطى، ماذا حدث؟ ظهر من جديد فجر عصر النهضة وأخذ يتألَّق بضوء العقل. إنها شمس الإغريق طلعت مرة أخرى في عصر النهضة، فما عهد إحياء العلوم وبعث التفكير الإغريقي إلا نهار جديد طلع بعد انصرام الهزيع الأخير المقمر من ليلة القرون الوسطى.

أهي أستار تتعاقب على مسرح الوجود الدائر تلك القوى الخفية التي نسميها الغريزة والقلب والعقل؟ أتراها تلعب في حياة الإنسانية الدور الذي يلعبه الظلام والقمر والشمس في حياة الإنسان اليومية؟

هؤلاء هم بالضبط أبطال مسرحيتِي «شهرزاد»؛ فالظلام هو «العبد»، والقلب هو «قمر»، والعقل هو «شهريار»، وإن حركتهم حول «شهرزاد» لهي حركة الإنسانية كلها حول الطبيعة.

هل الإنسانية إذن تدور دوران الفصول؟ لقد أجاب شهريار: «كل شيء يدور، تلك هي الأبدية، يا لها من خدعة! نسأل الطبيعة عن سرها فتجيبنا باللف والدوران!» نعم إنها تدور دوران اليوم الكامل: ظلام وقمر ونهار ثم ظلام وقمر ونهار … وهكذا دواليك إلى نهاية الدهور.

إن فكرة التقدم العقلي المطَّرِد هي من أوهام العقل. إنها سراب شمس العقل في صحراء آمالنا الواسعة، إن الخط المستقيم لا يعرفه غير العقل. أما الطبيعة فلا تعرف غير محيط الدائرة.

لو عرف الإنسان نهارًا لا ليل له يمتد بضعة أعوام، لعرفت الإنسانية مثل هذا النهار في صورة حضارة فكرية ممتدة إلى آلاف الأعوام لا يعترضها ظلام الغرائز ولا أحلام الإيمان.

هذا النهار الطويل للإنسانية لو وُجد لكان مُحرِقًا لكثير من فضائل الإنسان.

حضارة اليوم الحديثة هي من غير شك نهار للإنسانية. نهار بزغ في عصر النهضة وإحياء العلوم، واستمرار متألق بكل أشعة العقل الإنساني. إنه النهار الثاني بعد نهار الإغريق الأول.

من العجيب أنه في كِلا النهارَين بدا مظهران من مظاهر التحرر لا للفكر وحده بل للمجتمع؛ ففي نهار الإغريق عرفت الإنسانية الديمقراطية، وفي نهار العصور الحديثة عرفت الإنسانية حقوق الإنسان.

في ليل الإنسانية المظلم أو المقمر لم يُعرف قط مثل هذا التحرر الذاتي والتيقُّظ الاجتماعي. أليس الليل مقترنًا بالنوم والأحلام والاستسلام، والنهار مقترنًا باليقظة والشعور بحقوق الذات؟

ما بعد حضارة اليوم الحديثة؟ ما مصير هذا النهار؟ أترى مصيره مصير كل نهار؟

هل نستطيع أن نتبين في الأفق جحافل الظلام المغِيرة على هذا النهار؟

أولئك الشعراء الذين قرنوا الظلام بالجحافل لا شك مصيبون. لا شيء يستطيع إطفاء مصباح الفكر غير يد القوة المادية. هكذا بدأ النور في الفتور منذ اقتربت من مصباح أثينا كفُّ «فيليب».

يقول الباحث الفرنسي جان روستان: «إذا قُدِّر لهذه الحضارة أن تتحطم غدًا عن آخرها لكان على الإنسان أن يعيد بناء كل شيء من جديد مبتدئًا بما بدأ به منذ نيف ومائة أو مائتي ألف من الأعوام، فكل ما قام به على مر الدهور من أعمال وما عاناه من جهود وما قاساه من آلام لا نفع فيه ولا غنى. وهنا الفرق الهائل بين حضارة الإنسان وحضارة الحيوان. إن شرذمة من النمل المنعزل عن العشيرة في إمكانها أن تنشئ عشيرة أخرى تامة التكوين، لكن شرذمة من الآدميين انعزلوا عن البشرية لا يستطيعون أن ينشئوا مجتمعًا بشريًّا إلا في صورته البربرية الأولى. إن حضارة النمل منطبعة في صميم خواص الحشرة، أما حضارة الإنسان فهي ليست مستقرة في صميم طبيعة الإنسان. بل هي مستقرة في خزائن المكتبات العامة وقاعات المتاحف ونصوص الشرائع ...»

من المحتمل إذن أن تدك القنابل هذه المتاحف والمكتبات وأن تعبث يد القوة المادية بالشرائع، وأن تضع كفها على أفواه الناطقين بالعلم، وعلى أبصار الباحثين عن الحقيقة، فإذا حضارة الإنسان قد تلاشت، وإذا البشرية تعود سيرتها البربرية الأولى. أوَلم يحدث بالفعل منذ قليل أن حُرِقت الكتب والمؤلفات وطُرِد العلماء والمفكرون (أينشتين وفرويد ومان ... إلخ)؟

مهما تكن الأسباب والظروف، فإن في مجرد إمكان حدوث ذلك في هذا العصر لنذيرًا وإشعارًا بإمكان عودة الظلام.

الإنسان مخلوق مؤمن بالطبع. في كل مراحله نرى حب التقديس؛ فالوثنية تقديس القوى الأرضية، والأديان السماوية تقديس القوى الروحية، والعلم الحديث تقديس القوى الفكرية.

والإسراف في الإيمان يؤدي إلى الطغيان، والطغيان إلى الانهيار. لقد زلزل العهدَ الوثني طغيانُ الكهنة والتيجان، والعهدَ المسيحي طغيانُ الكنيسة. والعهدَ العلمي الحديث طغيانُ الصناعة الكبرى.

إن «الصناعة الكبرى» هي «كنيسة» العلم الحديث.

لقد أرانا التاريخ كيف أن طغيان الكهنة والتيجان في الأرض جعل الإنسانية تلتمس الخلاص والحرية في السماء، وكيف أن طغيان الكنيسة باسم السماء قد جعل الإنسانية تلجأ إلى الخلاص والحرية في نور العقل والعلم البشري، بقي أن نعرف أين الخلاص من طغيان كنيسة العلم الحديث؛ الصناعة الكبرى؟

إن كنيسة العلم الحديث بكرادلتها الرأسماليين لتتفتح أبوابها على جهنم الغرائز الأولى. نعم، نحن في نهاية الدائرة. أسوف ندور دورةً أخرى من جديد؟

يقول العالم الاقتصادي «ر. هـ. توني»: «إن كارثة حضارتنا اليوم ليس مرجعها كما يظن الكثيرون سوء توزيع الإنتاج الصناعي، بل مرجعها الصناعة نفسها؛ الصناعة التي تبوأت مركزًا يطغى على كل شأن من شئون البشر. إن هذه الحمى الاقتصادية سوف تبدو للأجيال القادمة خليقة بالرثاء كما تبدو لنا اليوم حمى المعارك الدينية في القرن السابع عشر.»

إنه لمن المخجل كما يقول «جيمس روبنسون»: «أن نُخضع اليوم الحياة كلها لمقاصدها المادية على النحو الذي كان عليه أجدادنا المتوحشون يوم عاشوا في طور التكالب على ثمار الأشجار وجذور النبات وجلود الحيوان.»

حقًّا، لم يعد المكان الأولى في حياة البشرية للقيم الروحية، بل لم تعد للقيم الفكرية ذاتها ذلك المكان. إنما القيم الاقتصادية هي اليوم كل شيء. القيم الاقتصادية كانت هي أيضًا كل شيء في حياة القبيلة الأولى المتوحشة.

فلنستمع كذلك إلى قول «كيسرلنج»: «الخط البارز والمظهر الغالب للعصر الحاضر هو «الاقتصاد» أي «الغذاء»، أي مطالب الأرض والدم والجنس والبيئة.»

أي أن كل شيء اليوم خاضع للشطر «غير الروحي» للكائن البشري ... هذه الحضارة ما كانت تستطيع أن تنتهي إلا إلى هذه النهاية «غير الإنسانية» ما دامت تؤدى على هذه الصورة المخيفة إلى سيادة الآلة على الحياة، وإلى طغيان الحساب والأرقام، وإلى تقويض كل سلطان إلا سلطان الكم والعدد ... إن روح هذا العصر «الصناعي الاقتصادي» هي روح الكتل من الدهماء والسواد. وعصر السواد والدهماء هو في الحقيقة عصر الزعماء؛ فالكتل لا تعمل أبدًا بذاتها. إذن كلما كثر العدد احتاج الأمر إلى تنظيم ومنظمي وأصبح المنظم أو الزعيم هو القابض على زمام القطيع وهكذا تُمنح السلطات شبه المطلقة لمن ينظم الملايين. هؤلاء الزعماء المنظمون هم دائمًا من طراز «المروضين» لا من طراز «القادة الروحيين»، والمروض هو مَن يؤثر في تابعه عن طريق «الإيحاء» مجبرًا إياه على طاعته دون أن يشعره أنه قد سلب إرادته.

نحن إذن في طريق العودة إلى المجتمع البشري الأول الوثني، حيث كانت الجموع تخضع لسلطان الرجل القوي الذي يستطيع تخدير أحلامها والتأثير في أعصابها.

ما دمنا في عصر الزعماء «المروضين» فلن يكون هناك محل للكلام في الحرية؛ لأن المروِّض سجان قبل كل شيء.

هنا السر في أن الزعماء المروضين يضطهدون «الأديان السماوية» لأنهم يريدون حبس جموعهم داخل تلك الحظيرة التي يسهل فيها التأثير في أعصاب القطعان؛ حظيرة الغرائز بسياجها المفتول من «الوطنية والجنس والدم»، ولما كانت الأديان تحارب الغرائز وتسعى إلى إطلاق الناس من هذه الحظيرة إلى فضاء الإنسانية والإخاء الآدمي، فقد عدها المروضون أخطر خصم لمآربهم.

هنالك سبب آخر لرغبة الزعماء المروضين في صد جموعهم عن الأديان: إنهم لا يريدون لجموعهم أن تقدس شيئًا آخر غير الزعيم. إن شخص الزعيم هو الذي حل وينبغي أن يحل محل الدين في قلوب التابعين، وتلك هي العودة إلى الوثنية.

كذلك يمقت الزعماء المروضون العلماء والأساتذة والفلاسفة وأصحاب التأمل الطليق والفكر الحر ممن يدينون بمبدأ «العلم للعلم» أو «العلم للإنسانية»، ويرونهم غير جديرين بالبقاء إلا إذا خضعوا لمبدأ «العلم للوطن»، أي العلم في خدمة الجيش والعسكرية والاستعباد وسيادة الجنس والدم.

لقد سألني سائل ذات مرة عن مبدأ «العلم للوطن» فقلت: لا يمكن أن يكون العلم للوطن ولا لشيء آخر في هذا الوجود. إنما العلم لنفسه، فهو المعرفة الخالصة والرغبة المحرقة في استجلاء كنه الأشياء، وإن العلم إذا اتخذ له غرضًا غير نفسه تغيرت في الحال صفته ولم يعد يسمى علمًا، مهما يكن الغرض الذي يتجه إليه نبيلًا؛ فالعلم قبس من نور الله، وليس لله غرض إلا ذاته المطلقة.

ولكن تطبيق العلم أو العلم التطبيقي شيء آخر؛ فإن للوطن وللصناعة والتجارة … إلخ أن تستفيد من نتائج العلم وتستخرج منها المنفعة التي تريدها؛ فالعلماء الحقيقيون لا يطبقون العلم. إنما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة لا يبتغون من ورائها غير مجرد الدنو منها، تلك لذتهم الكبرى. أما رجال الأعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا العلم فليسوا من العلماء وإن درسوا العلم دراسة عميقة. وإن للعلم، ككل شيء في هذا الوجود، أوقات علو وأوقات انحطاط، ولا ينحط العلم إلا في وقت ترغمه فيه قوة غاشمة على السير في طريق مرسوم لمصلحة وطنية أو مالية؛ فالعلم طائر حر كالشعر، ومن قرأ تعريف «أينشتين» للعالم الحقيقي أدرك تمام الإدراك أن حياة العلم لا تكون إلا بإطلاقه في جو الحرية المطلقة، والعلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا؛ لأن الوطنية هي الأنانية في المجموع، والأنانية عمياء، والعلم هو البصر المنزه بحقيقية الأشياء، فمن أراد من العلم أن يعيش بنصف عين كي لا يرى غير مصلحة دولة واحدة وجنس واحد فهو من غير شك قد مسخ «العلم» «قردًا» يمشي ويرقص تحت عصا مروضه.

كل فكرة متصلة بفكرة «الدولية» متجهة إلى «الإنسانية» مبشرة بالسلام، حاضة على «اللاعسكرية»، هي خطيئة الخطايا في أعين الزعماء المروضين.

تلك هي أعنف صدمة هزت نفسي في السنوات القلائل التي تلت الحرب الكبرى الأخرى. لقد كنت ممن يؤمنون باطراد التقدم الإنساني. لقد كنت أتابع وقتذاك آمال الساسة والكتاب في جمعية الأمم والسلام، وأطالع آراء ماركس وتلاميذه في «الدولية» و«اللاعسكرية». لقد كنت غارقًا أنا أيضًا في تلك الأحلام التي نسجها لنا هداة البشر وقادته الروحيون من الرسل والشعراء والمفكرين، لقد كنت موقنا بأن الأوان قد آن عقب تلك الحرب لزوال الحواجز بين الأمم والأمم، وانقضاء عهد القبائل الوحشية المتنافرة التي يسمونها اليوم «دولًا» تُغير إحداها على الأخرى، مدفوعة بمطالب الأرض والدم والجنس، واتجاه البشرية أخيرًا إلى تحقيق ذلك المجتمع الإنساني الأعلى الذي يجعل من سكان هذا الكوكب إخوة أحرارًا. لقد ظننت أن تلك الحرب العظمى بفظائعها ومخازيها قد ردعت البشر، لكن ... وا أسفاه! فوجئت بما هالني: لقد ارتدَّت البشرية بغتة إلى الوراء، وإذا من كنا نحسبه إنسانًا متحضرًا آخذًا بأسباب السمو قد عاد يصيح صيحات الغابة، معلنًا العودة إلى غرائز الدم والجنس. وخفت صوت القائلين «بالدولية» و«اللاعسكرية»، وارتفع صوت الناعقين بشريعة القوى المادية وحق الأقوى في سحق الآخرين وسيادة العالمين.

عجبا! أترى الإنسانية لا تتقدم في حقيقة الأمر ولا تتأخر. أتراها حقًّا تدور في تلك الحلقة المفرغة؛ غريزة وقلب وعقل ثم غريزة وقلب وعقل ... إلخ وهكذا في حركة دائمة كحركة الكواكب في مجموعاتها الشمسية؟ في ذلك الوقت تيقظت في نفسي فكرة قصتِي «شهرزاد». «شهرزاد» هي مأساة الشك في اطِّراد التقدم الإنساني في خط مستقيم.

إذا كنت أشك بالتقدم الإنساني، وأرى أن دورة الإنسانية تسير بمقتضى قانون شبه فلكي لا ينحرف قيد شعرة كقانون الشمس والقمر والظلام، فأي جدوى في نشر هذه الصفحات وفي إطلاق الصيحات؟

الحقيقة أن عقلي يشك ولكن قلبي يؤمن. إن قوة العقل الشك، وقوة القلب الإيمان، والإنسان هو الفريسة التي تتصارع فوق جسدها هاتان القوتان. إن روح «المأساة» هي الصراع، ولقد أدرك شعراء المآسي الإغريقية أن أروع صراع هو ذلك الصراع القائم دائمًا بين الإنسان وتلك القوى العليا الخارجية التي يسمونها «القدر» و«الآلهة». أما أنا فقد رأيت مأساة الإنسان والإنسانية في ذلك الصراع الدائم بين تلك القوى الداخلية؛ العقل والقلب. لذلك كتبت

قصتِي «أهل الكهف»؛ «أهل الكهف» هي مأساة الصراع بين العقل الذي يشك والقلب الذي يؤمن.

نعم؛ إن عقلي يشك ولكن قلبي يؤمن. ما من رجل أحب الإنسانية استطاع لحظة أن يشك في إمكان تقدمها وسموها. إني أعتقد أنها تتقدم، ولكن مثل تقدم المجموعة الشمسية في الفضاء. كل كوكب فيها يدور حول نفسه وحول الشمس، ولكن المجموعة كلها تسير ذلك في فضاء اللانهاية.

نعم؛ لقد لبثنا حقيقة في حياة الصيد ٤٤٩٠٠٠ سنة، ولكن أي خطوات هرقلية خطوناها بعد ذلك في القرون القليلة الأخيرة؟! إن سلطان الظلام يهددنا من آن لآن ولكن القيم التي كسبناها قد كسبناها. إن الحرية والجمال الروحي والفني والفكر الطليق وحقوق الإنسان، كل أولئك أشياء لا يمكن للإنسانية أن تنزل عنها أو تنساها. قد تعصف بها حينًا بعد حين عواصف القوى الأرضية ولكنها لن تستأصل جذورها التي تنمو وتمتد في أعماق النفس البشرية.

علينا إذن نحن جنود القوى الروحية والفكرية أن ننشر الصفحات وأن نطلق الصيحات، كلما شُنت علينا الغارات جيوش القوى الأرضية والحيوانية.

## (٢) دفاع القوى الروحية والفكرية

منذ أدركت أن الحرب حرب القوى الأرضية وأن السلطان سلطان الظلام، وأن الأمر للزعماء المروضين، رأيت الدفاع منوطًا بالقوى الروحية والفكرية، وسلطان النور، والقادة الروحيين.

على أن الذي هالني حقًّا هو هذا الأثر الذي أحدثه طغيان القوى الأرضية في بعض رجال الروح والفكر أنفسهم. عند ذاك بادرت بنشر تلك الكلمة التي عنوانها «فيران السفينة»[١]

[١] جريدة الأهرام ١٩٤٠م.

موجهة إلى أولئك الذين كانوا البارحة يتشدقون بذكر النور والحرية والفكرة والمدنية ... إلخ، فلما هزت يد القوة البربرية هذه الهياكل، هرعوا مذعورين إلى الجانب الآخر يمجدون القوة الغاشمة ويعبدون الطغيان. هؤلاء الذين خدعونا وخدعوا أنفسهم يوم لبسوا مسوح المؤمنين بالقيم العليا للإنسانية، فإذا هم فيران في سفينة الحضارة والحرية يمرحون في أرجائها وهي بخير. فلما شموا ريح الخطر انسلوا يبغون الفرار منها ولو على ظهر حطامها. ثم ها هم أولاء يقفزون إلى سفينة القرصان، يتخذونهم آلهة ومُثُلًا عليا، ويضعون تحت أقدامهم عين الأزهار التي جعلوها من قبل على هام تماثيل الحرية المجيدة. إلى أولئك الخارجين على قوى الروح والفكر أؤكد عقيدتي الدائمة في هذه الكلمات: إني أزدري وسأزدري دائمًا القوة الوحشية في ذاتها. وإني لأدعو وسأدعو دائمًا إلى القوة الفكرية والمعنوية التي تنتج القوة المادية الخصبة الخيرة الكفيلة بتنمية مواهب الإنسان وفضائله وضمان حرياته وحقوقه وتمكين النوع البشري من الاستمرار في الرقي! في سبيل هذا وحده أعيش وأعمل كما يعيش جنود الفكر والروح ويعملون، وإني أعلن هذه العقيدة ولى الشرف العظيم أن أموت يوما من أجلها. وأن أغرق معها إذا غرقت، فلا خير في صاحب فكرة أو عقيدة لا يموت بموتها.

لقد تمنيت في نفسي لو أن في المقدور توحيد صفوف رجال الفكر والروح في كل شعب وأمة، فأمام كتل الظلام يجب أن تقف كتل النور. من أجل ذلك نشرت نداء إلى رجال الفكر[٢] أقول فيه: لا ريب أن رجال الفكر في مصر قد تأملوا مليًّا تلك الخطبة التي ألقاها «سمنر ويلز» عند انتهاء المؤتمر العلمي للأمم الأمريكية مشيرًا فيها إلى ليل العصور الوسطى وفجر عصر النهضة وما تبعه من حركة إحياء العلوم، إلى أن قال: ليس في مقدورنا أن نتكهن بشيء عن احتمال العودة مرة أخرى إلى ظلام القرون الوسطى، على الأقل فيما يتعلق بشئون الفكر والروح، في بلاد أصبح البحث الحر فيها مستحيلًا ... إلخ، ثم تمنى أن يزول شبح هذا الخطر الداهم على الحضارة، ودعا الولايات المتحدة إلى واجب الذود عن مدنية تدين لها بخير ما عندها. هذه الصيحة القلقة على مصير الفكر المطلق لابد أن يكون لها صدًى عميق في نفوس مفكرينا ومفكري الشرق الباعث لحضارة البحر الأبيض. ولئن كان صوت أقدام القوة الوحشية وهي تسحق الأمم الحرة لم يزعج بعد رجالنا السياسيين

[٢] جريدة الأهرام ٢٠ مايو ١٩٤٠م.

المتنابذين، فإن نذير الدمار المسلط على شئون الفكر والروح كفيل بأن يوحد جهود رجال الفكر وأن ينهضهم متساندين للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم في وضع أحجارها الأولى: فإلى إخواني المفكرين والأدباء أوجه هذا النداء، وإن العبرة التي تستخلص من قيامهم الآن قومة رجل واحد، وارتفاع أصواتهم في صيحة واحدة قد يكون لها أعظم الأثر في توحيد صفوف أخرى طالما انتظرَتها البلاد.

في اليوم التالي نشرت إحدى الصحف اليومية[٣] مقالًا طويلًا جاء فيه: «ونحسب دعوة الكاتب جماعة المفكرين إلى الدفاع عن الحرية الفكرية ضد الدكتاتورية ... قد جاءت ممن كان آخر الذين ينتظر منهم الحماسة للديمقراطية والحريات المقررة في الدساتير؛ لأنه سبق أن طعن فيها وتحامل عليها ... إلخ.»

وهذا صحيح، على أني بعثت إلى هذه الجريدة أقول:[٤] إني يوم انتقدت الديمقراطية، لم أفعل أكثر من أولئك الكتاب الديمقراطيين الذين هبوا في فرنسا وإنجلترا يحملون على بعض مثالب هذا النظام مشبعين بروح الرغبة في علاج الداء وتقوية الضعف. على أن كل طعن وكل نقد لأي مقصد من المقاصد ينبغي أن يزول في الحال، وقد زال فعلًا عندما بدا للجميع أن الديمقراطية باعتبارها مبدأً إنسانيًّا مهدَّدة في صميمها بالزوال، وأن شبح الطغيان القائم بدا في الأفق ينذر الناس بأن أفواههم ستكتم وأن حق تفكيرهم سيلغى اليوم، وأنهم محكوم عليهم أن يعيشوا طول الحياة آلات وأدوات تتحرك بمشيئة طاغية. هنا تتلاشى الخلافات والانتقادات. ولا يبقى لكل رجل حر أو صاحب قلم وفكر إلا أن ينهض ذائدًا عن الديمقراطية ناسيًا إلى حينٍ مآخذَها؛ فهي النظام الوحيد الذي يستطيع في ظله أن يعيش فرد ذو كرامة، وإذا ذهبت الحرية فأجدر بالحر أن يموت.

هل أنا كاتب ديمقراطي؟ الحقيقة أني لست ديمقراطيًّا بالمعنى السياسي لهذه الكلمة. إني لا أستطيع أن أنتمي إلى الديمقراطية باعتبارها نظاما سياسيًّا أو حزبيًّا؛ لأن الحرية الفكرية والروحية التي هي كل مسوح المفكر الحر الحقيقي تمنع من الانخراط في سلك

[٣] جريدة المصري ٢١ مايو ١٩٤٠م.

[٤] جريدة المصري ٢٢ مايو ١٩٤٠م.

حزب أو نظام قد يضطر إلى الدفاع عنه بالحق وبالباطل. إني لا أستطيع أن أدافع قط عمَّا أعتقد أنه الباطل، ولا أستطيع أن أخدم شيئًا قط غير ما أعتقد أنه الحق، وهو لن يكون إلا في المبادئ العليا الخالدة البعيدة عن الأشخاص الزائلين، إن الذي أومن به وأدافع عنه دائمًا هو الديمقراطية باعتبارها مبدأً إنسانيًّا لا نظامًا سياسيًّا. الديمقراطية الموجودة في قلب كل إنسان يقدر معنى «حقوق الإنسان» ومعنى «الحرية» و«الكرامة الآدمية».

الكاتب الحر الحق هو الذي يبقى بعيدًا عن الحركات الحزبية والسياسية كي يستطيع أن يدافع بمطلق الحرية عن المثل العليا الإنسانية، ولا يؤازر المذاهب والأشخاص إلا على قدر احتفاظها بروح هذه المثل.

لذلك لم أستطع أن أغمض عيني عن بعض النظم السياسية المنتمية إلى الديمقراطية يوم تطرَّق إليها الفساد وعبث بها الساسة المحترفون.

في قصتِي «براكسا أو مشكلة الحكم» سخرية ببعض مظاهر الحكم الديمقراطي، وسخرية ببعض مظاهر الحكم الدكتاتوري، وليس فيها حل لمشكلة الحكم. لماذا؟ لأن هذا ليس من مهمة الكاتب الحر.

إن الكاتب الذي ينشئ مذهبًا سياسيًّا يتمسك به ويكبل فكره بنصوصه، مثله مثل الكاتب الذي ينضم إلى مذهب سياسي قائم، كلاهما قد فقد النظر الحر إلى بقية المذاهب والأشياء، وقص أجنحته التي يحلق بها فوق الكائنات ليقع محصورًا في حظيرة فصيلة من الفصائل أو نوع من الأنواع.

الكاتب الحر في نظري هو الحكم النزيه في حلبة اللاعبين، إنه هو الذي يُحصي الأخطاء بغير تمييز ولا تحامل، وهو الذي يفضح ستر الخارجين على أصول اللعب القويم، وهو الذي ينبه الغافلين إلى كل خطر يدنو من قواعد المثل العليا.

الكاتب الحر هو الحارس الأمين لجواهر الفضائل الإنسانية.

للكاتب الحر مهمة إيجابية أيضًا؛ فهو قد يستطيع أن ينشئ للإنسانية نُظُمًا وعوالم مثالية، وأن يرسل في الأجيال أفكارًا ومبادئ تصلح أساسا لمذاهب عملية في السياسة والاجتماع، ولكنه لن يكون مسئولًا عن كيفية استخدام أفكاره ولا عن الأشخاص الذين وضعوها موضع التنفيذ.

التفكير الحر هو التحرر من كل القيود، إذ بمجرد التقيد تتعطل في الحال آلة التفكير الحر.

التفكير الحر قد يستطيع أن يتحرر من كل مبدأ إلا من مبدأ حرية التفكير.

لذلك كان النضال بين أحرار المفكرين وبين الزعماء المروضين هو نضال حياة أو موت.

## (٣) في طريق التحرر من سلطان الظلام

أول خطوة في طريق التحرر من سلطان الظلام هي القضاء النهائي على رغبة القوي في الوثوب على الضعيف.

قانون الغابة لم يزل يُسيطر على المجتمع الدولي، يجب أن تحل محله القوانين الخلقية والوضعية التي تنظم كل مجتمع متحضر لأمة متحضرة.

ترتفع اليوم أصوات جميلة كأنها أهازيج الطير قُبيل الفجر الجميل. لقد سرني قول «روزفلت» في إحدى خطبه: لم يكن في العالم ولن يكون فيه عنصر يصلح أن يسود غيره من العناصر الأخرى، وليس في العالم مكان لأمة تزعم لنفسها حق السيطرة على بقية الأمم والأجناس لا لشيء إلا لضخامة حجمها وقوة جيوشها. إن لكل شعب مهما يكن صغيرًا حقًّا موروثًا في التمتع باستقلاله كما يشتهي ويريد.

سرتني أيضًا آراء «ويلز» في حقوق الإنسان كما عددها وتمناها، ونظراته في مستقبل الإنسانية، وتصوراته فيما ينبغي أن يكون عليه عالم الغد.

على أن الذي سرني أكثر من كل هذا هو أن قادة الفكر والروح قد أدركوا أن عدوهم الحقيقي ليس فقط هؤلاء المهرجين من الزعماء المروضين. أمر هؤلاء هيِّن ميسور، والقضاء عليهم مرهون بوقت يسير. إنما العدو الأكبر هو «دين العصر» الرابض وراء الجميع: «الاقتصاد الحديث».

لا أمل في إصلاح العالم إلا إذا عولج شقاء الملايين في كل أمة من الأمم، من أجل ذلك لم يستطع حتى الزعماء المروضين أنفسهم أن يعتمدوا على كلمة «الوطنية» وحدها في التأثير على الجموع، فقرنوها بكلمة «الاشتراكية».

إن الصائغ الذي يريد أن «يلحم» ذهبًا بنحاس ليس أقل تزييفًا من أولئك الذين أرادوا أن يلحموا «الاشتراكية» «بالوطنية».

إن جوهر «الاشتراكية» السليم لا يمكن أن يقترن إلا بفكرة «الدولية».

إن العالم يتجه الآن من غير شك إلى الاشتراكية. بل إنه قد خطا إليها بالفعل خطوة واسعة منذ قام في بريطانيا ذلك الانقلاب الحديث في نظام العمل، هذا الانقلاب الذي بمقتضاه يصبح العمال «خدام الدولة» فلا يستطيع صاحب العمل فصلهم بمحض إرادته ولا يستطيعون هم أن يتركوا أعمالهم بدون إذن السلطات، كما أنه يُستطاع نقلهم من مصنع إلى آخر، وتحدد الحكومة الأجور وساعات العمل، وتشرف على أرباح رأس المال ... إلخ، بل لقد قيدت الحكومة أرباح رأس المال إلى حد المصادرة إذا تعدى الربح رقمًا مقدرًا.

إني لست أرى رأي القائلين إن تلك أنظمة استثنائية تزول بزوال الحرب، بل إني أرى رأي القائلين إن كل ذلك نواة لعالم جديد يتكون منذ الآن ليولد صحيح البنيان بعد الحرب.

يقول «مستر أتلي» زعيم العمال وأحد وزراء بريطانيا اليوم: «انطوى العالم الذي كان قبل الحرب، وسوف تكون الانقلابات التي تجلبها هذه الحرب مثل الانقلابات التي جلبتها الحرب الماضية في عظم شأنها وسعة نطاقها. أما الخطط التي يراد بها إنشاء عالم جديد أقرب إلى الإنصاف من العالم الذي انقضى فلا يصح تركها إلى زمان السلم بل يجب الشروع في رسمها منذ الآن. إني لأرجو بعد الحرب أن يكون تقديم الطعام الملائم لجميع أفراد الأمة

جزءًا ثابتًا من برنامج السياسة «القومية»، وإني لأرجو ألَّا يُسمح بعد اليوم ببقاء صنف «الأغنياء المتعطلين» ولا أن يُنكر حق العمل على الذين يريدون العمل ويَقدرون عليه، وأن يُقضَى على البطالة القضاء الأخير.»

لا ريب إذن أن الاشتراكية هي جوهر لابد أن يدخل في تركيب كل نظام سياسي حديث، وكما استطاعت الدكتاتورية اختراع «الوطنية الاشتراكية» فما أيسر على الديمقراطيات إنشاء «الديمقراطية الاشتراكية».

ما أسميه هنا «الديمقراطية الاشتراكية» إن هو إلا هذه النظم الاشتراكية التي قامت اليوم داخل إطار الديمقراطية، كما ظهرت من قبل بعض مظاهر تلك النظم داخل إطار الوطنية الدكتاتورية.

نحن اليوم إذن أمام حرب «الوطنية الاشتراكية» و«الديمقراطية الاشتراكية».

«الديمقراطية الاشتراكية» هي من غير شك صياغة مقبولة لجوهرَين متلائمَين، لكن «الديمقراطية شيء والدولية شيء آخر».

إذا كانت كل ثمرات العالم الجديد بعد إبادة الدكتاتوريات هي تعميم «الديمقراطيات الاشتراكية» لكان هذا جميلًا ... لكنه ليس كل ما يصبو إليه التقدم الإنساني، ذلك أن الديمقراطية الاشتراكية هي أيضًا ليست أكثر من «نظام داخلي» لكل دولة من الدول، وأن كل دولة «ديمقراطية اشتراكية» تستطيع أن تنشئ لنفسها مطامع استعمارية وسياسة قومية تقوم على السيادة الخارجية وبهذا تستأنف الحروب الاقتصادية والدموية بين الدول «الديمقراطية الاشتراكية» بعضها ضد البعض.

كانت فكرتي منذ أعوام أن «الاشتراكية» ينبغي أن تأتي من الخارج إلى الداخل، أي أن تسود بين الدول قبل أن تقرَّ بين الأفراد.

الاشتراكية بين الدول في الإنتاج والتوزيع والقانون والنظام، إذا تم ذلك فقد تم كل شيء تبعًا لذلك.

أهذا حلم بعيد التحقيق، لا يراه غير خيال «ويلز» و«برنارد شو»؟ كنت أظن ذلك قبل أن أقرأ خطبة رجل رسمي مسئول من أقطاب الحكومة البريطانية الحاضرة هو «هربرت موريسون»، فقد تحدث عن عالم الغد قائلًا: «إن الهدف الذي نرمي إليه هو نظام تعاوني دولي يدعمه بوليس وطيران دوليان تعيش الدول في رحابه، مضحية عن طيب خاطر ببعض حقوق استقلالها، لتتضافر جميعها في إخلاص على خلق حياة أرقى وأصلح. ينبغي أن نعيش في ذلك النظام الذي يمنح فيه كل إنسان لا فقط حرية القول والفعل بل حرية العمل لإبداع كل ما هو خصب منتج، ينبغي أن نسير نحو ذلك المجتمع الذي بَرِئ من ذلك الطاعون المزدوج: الغنى المتطرف والفقر المتطرف، نريد مجتمعًا يقبل فيه عن طيب خاطر مبدأ المحافظة على مستوًى معقول للصحة والراحة والطمأنينة والأمن والتهذيب لكل إنسان».

وبعد ... أترى الإنسانية قد فهمت أخيرًا وتعلمت؟ هل آن الأوان للإنسانية، التي عرفت كيف تنفق ملايين الملايين في التدمير والاستعباد، أن تعرف بعد الآن كيف تنفقها في التعمير والإسعاد؟ هل آن لأعيننا أن ترى الطائرات في أحدث أنواعها الضخمة كالقلاع، تنقل بدل أثقال المفرقعات والمهلكات، أحمال الخيرات والمنتجات ليعم خيرُها البشرَ والكائنات، دون أن تعترضها جمارك أو حدود؟ أترى أساطيل الهواء اليوم ذات المظلات البيضاء هي ملائكة السلام غدًا، تهبط كي تمحو الفواصل التي وضعتها يد البربرية على الأرض منذ القدم لتحول بين الإنسان وأخيه الإنسان؟

إلى كل من يحمل قلبًا نابضًا بالأمل في سمو البشرية، فياضا بالحب للإنسان والإنسانية أوجه هذه الصيحات، وأهدى هذه الصفحات.

(ت. ا)

# تلميذ الموت

إلى أعداء الإنسانية

جلس «الموت» ذات صباح في قاعة عمله، إلى مكتب ضخم يقوم على عظام فيل، ووضع إصبعه على جمجمته مفكرًا، وعيناه الغائرتان تنظران إلى مجموعة أثرية من المناجل تزين الجدران، وفمه الواسع ذو الأسنان الصفراء يلوك سيجارًا كبيرًا منطفئًا، كأنه فرع جاف يتمايل في رأس شجرة نخرة في يوم من أيام الخريف، كل شيء فيه يدل على القلق واضطراب البال، ومد يده أخيرًا إلى ملف فوق مكتبه وانتزع منه ورقة، جعل يطالع ما فيها من إحصاءات وأرقام، على مهل وفي شيء من التأمُّل العميق، ثم طرحها فجأةً نافدَ الصبر وصاح:

– هذا إفلاس. إن هذا هو الإفلاس!

ثم ضغط على زر الجرس الكهربائي وطلب أحد مندوبيه واسمه «المرض»، فلم يلبث أن ظهر بباب الحجرة بوجهه القبيح ذي التجاعيد والبثور وعينه العوراء. وتقدم في خوف وخجل بقدمه العرجاء، فبادره «الموت» قائلًا: ما هذه الأرقام والإحصاءات التي بين يدَيَّ؟ إن أعمالنا تتناقص على نحو مخيف، وإن دائرة أشغالنا تضيق عامًا بعد عام. إن إيرادنا السنوي من الأرواح التي اعتدنا قبضها قد هبط إلى مستوًى يدعو إلى القلق الشديد!

فتنحنح «المرض» وقال: أيها الرئيس. ينبغي أن أعترف لك بالحقيقة؛ يستحيل عليَّ الآن أن أقوم بعملي كما كنت أقوم به في الماضي. إني كنت على وشك تقديم استقالتي إليك اليوم.

– استقالتك؟!

– من غير شك، إذا جال في خاطرك أني مقصر أو مسئول عمَّا وصل إليه «الإيراد» من نقص. إني ما تركت بيتًا إلا دخلته ولكني كنت أجد دائمًا في انتظاري …

– ماذا؟

– أشياء مخيفة يقشعر من هولها بدني: «حقنة ذات إبرة طويلة» مسددة إلى قلبي، و«مصل في أنبوبة زجاجية» مجهز ليفرغ في صدري، و«جهاز أشعة» يعمي بصري … كلا، إني لا أستطيع العمل مطلقًا أمام هذه الأخطار.

– لكل عمل أخطاره. على كل حال هذا ليس سببًا.

– هذا على الأقل سبب معقول لضعف إنتاجنا.

فكظم «الموت» غيظه وقال كالمخاطب لنفسه من بين أسنانه: تبًّا لهذا العلم الحديث. لكني أعرف كيف أحطم أسلحته، لا بل أعرف كيف أجعل منها أسلحة لي. اذهب أيها المندوب إلى عملك ودعني أتدبر الأمر.

– سأعمل بقدر استطاعتي لا أكثر ولا أقل.

قالها «المرض» وخرج من الحجرة. وعاد «الموت» إلى إطراقه.

ثم رفع رأسه ومد يده مرة أخرى إلى زر الجرس الكهربائي وضغط عليه. وطلب مندوبه الآخر المسمَّى «الحرب» … فجاء يدوي بصليل دروعه الحديدية وضرب الأرض بحذائه الضخم ورفع يده بالتحية العسكرية. فبادره «الموت» قائلًا: اسمع: إني في حاجة إليك. أنت كما تعلم، المعول عليه دائمًا في أزماتي، وينبغي أن أصارحك في الحال بأني واقع في أزمة شديدة؛ انظر إلى هذا التقرير وما فيه من إحصاءات وأرقام تدل على عجز وإفلاس … أنت وحدك، كما تذكر، المنوط دائمًا بموازنة ميزانيتنا وتعويض الخسائر الناتجة عن سوء الأعمال؛ ففي شهر واحد تستطيع أن ترفع الأرقام إلى ما يعادل إيراد خمسة أعوام.

فخلع «الحرب» خوذته النحاسية ومسح عرقه المتصبب وقال: أيها الرئيس. إني كنت على وشك تقديم استقالتي.

فدفع «الموت» مقعده إلى الوراء صائحًا: أنت أيضًا؟ ماذا جرى اليوم في الدنيا أيها الشياطين؟!

فأشار «المندوب» إلى النافذة وقال لرئيسه: اذهب وانظر واسمع: نشيد يتصاعد كالدخان من بطن الأرض، من كل قلب، مرتفعًا إلى السماء كأنه غاز خانق يصل إلى أنوفنا.

– أي نشيد؟

– نشيد «السلام» في كل مكان يتغنون به، وفي كل بلد يعقدون له الجلسات والمجتمعات والمؤتمرات. نعم؛ كل مكان أدنو منه أجد من يلقي في وجهي هذا الغاز الخانق. لا؛ إن عملي الآن لا يسرني ولا يلذ لي.

فأطرق «الموت»، وقد حار في أمره، لا يدري ما يفعل ... وأحس الضيق، فنهض وسار إلى النافذة الواسعة في صدر حجرته. وأشرف منها على الأرض الجميلة، ورأى الأشجار وقد أورقت، والأزهار وقد تفتحت وابتسمت في ألوان زاهية، والثمار وقد أينعت ودنت منها القطوف وتدلت العناقيد، والطير يشدو بين فراخه والحيوان مطمئن إلى صغاره، والإنسان ناعم مع أولاده، ونسيم الربيع ينشر أريجه على الربوع، وأغاني الفرح تتصاعد من الحقول والمروج والمدن، والقرويون يرقصون وهم يحصدون ... كل شيء ينم عن استقرار السلام والهناء والجمال. ويدل على أن الحياة تتجدد وأن الخصب يدب في كل شيء.

فلفظ «الموت» آهةً مروعة وابتعد عن النافذة وقد أحس حقًّا أنه يكاد يختنق. وسار خطوتين في حجرته ثم ارتمى في مقعده متهالكًا، وهو يردد من بين أسنانه: هذا هو الإفلاس. هذا هو الخراب، انهار مجدي وذهب سلطاني! لكن يأسه لم يدم طويلًا؛ فقد هب على قدميه فجأة وصاح: لا ... يجب أن أكافح. كفاحي وحده خليق بأن يعيد إليَّ قوتي ونفوذي.

ثم التفت إلى مندوبه «الحرب» وقال له: تذكر جيدًا. هذه ليست أول مرة نقع في أزمة. لقد سبق لنا أن وقعنا في أزمات أشد من هذه هولًا. تذكر تاريخك وماضيك جيدًا أيها الحرب!

– إني متذكر تاريخي جيدًا. لم يكن في تاريخي غاز خانق يملأ الكون مثل هذا النشيد الملعون.

– كان في تاريخك دائمًا فترات سكون. ولم يمنع هذا من اشتعالك وعودتك إلى أعمالك.

– لا تطلب إلى أن أشعل نفسي بنفسي. إني لم أصنع ذلك قط منذ وُلِدت، إنما أنا «علبة كبريت» ينبغي أن ...

– ينبغي أن توضع في يد مجنون!

قالها «الموت» وانفجر ضاحكا في قهقهة طويلة متصلة اهتزت لها أركان المكان. وظن «المندوب» أن رئيسه يمزح وأن النكتة قد أعجبته فلم يشاركه في الضحك. لكن الرئيس التفت إليه قائلًا: ألا تضحك وتُسَر؟ لقد وجدنا المفتاح.

– أي مفتاح؟

– أقسم إنك لا تعرف تاريخك كل المعرفة. ارجع بذاكرتك إلى الماضي تجد أن من أشعلك دائمًا كان ... «رجل مجنون»!

وعاد إلى الضحك. ثم دنا من النافذة مرة أخرى ونظر إلى الأرض الجميلة في حلتها التي أسبغها عليها الربيع، وتأمل السلام المخيم على الربوع. وأنصت إلى أغاني الناس ورقصهم وهنائهم وصاح: ها ها ها ... سوف أصب على كل هذا دمًا أحمر!

وترك النافذة على عجل، واتجه إلى مشجب في ركن الحجرة. قد علق عليه عباءته السوداء الواسعة. فجذبها وتدثر بها، وأشار بتحية سريعة من يده إلى مندوبه، وقال له وهو يتركه ويهبط إلى الأرض: كفاحي ونجاحي متوقفان على العثور على «مجنون»!

سار «الموت» في الأرض على غير هدًى، وجعل يكظم غيظه كلما مر بناس سعداء وأشجار مورقة وطيور مغردة. إنه يكره الحياة. وهرب سريعًا من الريف ودخل المدن فهالته المباني الرائعة الفخمة ودور اللهو التي تعج بالضاحكين المرحين ثم التماثيل الجميلة القائمة في كل مكان. إنه يكره الجمال. كل شيء حوله يدل على الحضارة المستقرة والبشرية المتقدمة المستمرة. أين هو الرجل الذي يجرؤ على أن يصب فوق هذا كله الدم الأحمر؟

تجهم وجه الموت وكاد يعود إلى اليأس ويترك كفاحه، وإذا نظره يقع على جمع من الناس يصيحون في الطريق، أمام بناء ضخم جميل مزين بالتماثيل، هو فيما يبدو متحف عظيم، فاتجه نحوهم فأبصر رجلًا نقاشًا في رأس سلم خشبي مسند إلى هذا البناء. في يده ريشة يغمسها في وعاء به طلاء أحمر، يلطخ به وجه البناء في غير ذوق ولا رشاقة، حتى سال من رءوس التماثيل وأفواهها وأنوفها ذلك اللون القاني.

وهاج به المارة: كُف أيها النقاش! ... إنك تفسد رونق المتحف.

وسمع موظفو الدار الصباح فخرجوا يهرعون. ورأوا ما حدث.

فصاحوا: قف أيها العامل! انزل أيها العامل!

فالتفت إليهم النقاش من أعلى السلم:

– ألا يروقكم هذا اللون؟ إن متحفكم في حاجة إلى لون حار صارخ.

فصاح موظفو المتحف بالناس المجتمعين:

– أنزلوا هذا المغرور المجنون!

هنا لفظ «الموت» صيحة فرح دوت داخل هيكله العظمى وقال مخاطبًا نفسه:

– عثرت عليه! عثرت عليه!

ثم تقدم إلى السلم ونادي الرجل: أيها النقاش! انزل فعندي لك عمل أعظم من هذا!

مشى «الموت» إلى حانة من حانات «البيرة» ومعه النقاش يحمل ريشته ووعاء صبغته الحمراء، وهو يقول «للموت»: هذا العمل في أي بناء؟

فابتسم «الموت» عن أسنانه الصفراء: في بناء هائل ينبغي أن تُريق عليه كل هذا اللون الأرجواني.

فقال النقاش: أرأيت هؤلاء الذين لا يعجبهم عملي.

– إنهم حمقى. هذه المتاحف بألوانها الهادئة المطمئنة لَمِمَّا يؤذي النظر. ألا ترى مثلي ذلك؟ كل هذا الذي يسمونه «الجمال» وكل هذا الذي يسمونه «المدنية» يجب أن يُصَب عليه لون الثورة.

فقال النقاش في نبرة تنم عن غباء: أي جمال وأي مدنية؟

فاستطرد «الموت» دون أن يصغي إليه: ذلك اللون الذي تثور لمرآه أعصاب الوحوش في الغابة!

– الغابة؟!

– نعم؛ ما أجمل هذا اللون الذي يعبد في الغابة!

لفظها «الموت» وكأنه يرتل شعرًا (لو أن الشعر يرضى أن يدنو من فم الموت) ثم التفت فجأةً إلى النقاش قائلًا: وأنت الرجل الذي يستطيع أن يلطخ كل شيء بذلك اللون!

– اللون الأحمر، نعم أستطيع أن أصبغ به.

– أعرف هذا.

قالها «الموت» وهو يشير بإصبعه إلى «جارسون» الحانة يطلب إليه كأسين من بيرة «مونيخ».

وجاء الشراب فرفع «الموت» كأسه قائلًا: في نخب نجاحنا!

عاد الموت إلى مكتبه وهو يفرك يديه سرورًا. فتلقاه مندوبه «الحرب» قائلًا:

– ماذا صنعت أيها الرئيس؟

فأجاب «الموت» باسمًا:

– عثرت لك على الرجل الذي ينبغي أن تلقي بين يديه علبة الكبريت!

لا تنسَ أنه يجب أن يكون «مجنونًا».

لم أنسَ.

– أين هو؟

– بيني وبينه موعد بعد قليل.

ودخل الليل. ودقت الساعة الثانية عشرة. فأومأ الرئيس بيده إلى «مندوبه» آمرًا إياه أن يختفي في الحجرة المجاورة، وأقبل «النقاش»، فاستقبله «الرئيس» بالترحاب وقدم له كرسيًّا قُرب المكتب. ونظر النقاش حوله يفحص المكان. ثم التفت إلى «الموت» قائلًا: إني في خدمتك؟

– بل أنا الذي في خدمتك.

–عفوا ... إني ...

– لا تتواضع، إنك لا تعرف قدر نفسك. إنك خُلقت لتغير وجه العالم. إن القدر قد اختارك لتصبغ الوجود كله باللون الذي يروقك. إنك مهيأ لتسيطر على قطعان البشر. إن آلهة الغاب الوثنيين قد ندبوك لتعيد حكمهم وحكم شريعة الغابة على هذه الأرض!

– أنا؟!

– نعم أنت.

– وكيف أستطيع ذلك؟

الخطة بسيطة، فلنسطرها على الورق أولًا حتى تتحدد معالمها ويسهل السير بمقتضاها. خذ هذا القلم واكتب.

وقدم «الموت» قلمًا وورقًا إلى النقاش وقال له: سأملي عليك كتابًا هو دستور العمل. اكتب: «كفاحي»!

فرفع النقاش رأسه نحو «الموت» مستفهمًا: كفاحك؟

– بل كفاحك أنت.

– كفاحي أنا؟

«كفاحنا» نحن الاثنين إذا شئت.

قالها «الموت» في ابتسامة وهو ينظر إلى باب الحجرة المجاورة وقد أطل منه مندوبه «الحرب» برأسه وغمز لمولاه غمزةً ذات معنًى، وجعل «الموت» يملي النقاش الكتاب، والنقاش يكتب وهو صامت وكأنه في غيبوبة، وقد تصبب من وجهه العرق، وجعل يقول كالحالم: أنا سأقوم بكل هذا؟ أنا سأصنع كل هذا؟

أنت إنسان عظيم.

– أنا إنسان عظيم؟

– وصاحب رسالة هيأك لها القدر والآلهة الأقدمون. لا ينبغي أن تشك في ذلك لحظة.

قال له «الموت» ذلك في نبرات قوية، تستر ابتسامة خفية، وعلم، المندوب الآخر «المرض» بقرب انفراج الأزمة فجاء هو أيضًا يطل برأسه من خلف الباب، وكتفه تزاحم كتف «الحرب» ومال على أذن زميله هامسًا: أهذا هو المجنون الذي كان يبحث عنه الرئيس؟

– نعم لقد عثرنا عليه أخيرًا.

– ينبغي أن يُكافَأ هذا الرجل. يجب أن يمنح هدية ثمينة. ترى ماذا سيعطيه «الرئيس»؟

فقال «الحرب» باسمًا: ما أعطى أمثاله من قبل.

– ماذا؟

– علبة كبريت.

– إنه حتمًا يُحدِث بها حريقًا.

– هذا هو المطلوب.

لكنه هو أيضًا سيحترق.

– ولهذا هو مجنون!

# الانتصار الخالد

إلى أهل النرويج محبي الجمال والحرية ...
وإلى الشعب اليوناني منبع الفكر الحر والديمقراطية ...
وإلى كل شعب حي يجاهد في سبيل استرداد «مطرقته الفضية» ...
رمز القوة المعنوية والحيوية الروحية.

جاء في أساطير النرويج القديمة، أن قصف الرعد يحدث من عجلات مركبة إله يُدعى «ثر»، يركض بها فوق السحب، يجرها وعلان عظيمان. ويُروى أن لهذا الإله قصرًا أحجاره من الزمرد والياقوت، به أكثر من خمسمائة حجرة، مشيدًا في «أسجارد» مدينة الآلهة والأبطال. على أن قوة «ثر» ومعجزته هي في «مطرقة» هائلة من الفضة الخالصة يملكها، لها مزية عجيبة؛ فهي ترتد دائمًا من تلقاء نفسها إلى قبضته، بعد أن تصيب ما يقذفه بها، لهذا حرص «ثر» كل الحرص على هذه المطرقة الثمينة. غير أن سوء الطالع شاء يومًا أن يفقد هذا الإله مطرقته، وأن تقع في يد عدوه «ثريم» العملاق ... الذي سلبها واستولى عليها مستعينًا بسلاح الخيانة والغدر، طامعًا في حبسها بأرض العمالقة، فأوفد «ثر» رسولًا من قِبله إلى العملاق يفاوضه في الشروط التي يقبلها لرد المطرقة الفضية.

لبث «ثر» أيامًا في قصره ينتظر عودة سفيره، وقد كاد يمزق أوصالَه القلق. إلى أن دخل عليه ذات نهار بعض أتباعه يصيحون:

– السفير! السفير!

– عاد؟

– دخل من باب القصر الكبير.

– أحضروه!

ودخل السفير يلهث، فابتدره «ثر»:

– قُص عليَّ ما صنعت.

– ذهبت إلى أرض العملاق ... فرأيت ...

ووقف عن الكلام يمسح عرقه المتصبب. فصاح فيه: تكلم ... ماذا رأيت؟

فأجاب السفير:

– لكأن اللعنة حلت حقًّا بتلك الأرض. كل شيء هناك يدل على أن العملاق هو حقًّا عدو «أودين» إله الشعر والخير، فكل أهل تلك الأرض يعيشون في فزع دائم ... يهمسون ولا يتكلمون كأن يدًا جهنمية هائلة تخنق كل شيء، وكأن قدمًا ضخمة عاتية تطأ كل شيء.

– والنوع البشري كيف هو هناك؟

– مثله مثل الأغنام الحبيسة في الحظيرة، قد وكل بأمرها الكلاب!

– وهل رأيت العملاق؟

– رأيته وجهًا لوجه! وقلت له: إن الخيانة والغدر لا يليقان بالعدو الشريف. وإن «ثر» يقبل دائمًا نزاله على قواعد الصدق والأمانة والشجاعة الحقيقية. أما أن يحتال على تجريده من سلاحه قبل الهجوم، بهذه الوسيلة المنكرة، فهو ما لا تقره الأخلاق الرفيعة.

– وبماذا أجاب؟

– قهقه ضاحكًا، وقال إنه لا شأن له بالأخلاق والشرف، فحسبه أن ينتزع قوة خصمه، ليصبح في مقدوره أن يجتاح أرضه، وأن يُذل عنقه، إذا لم يذعن لمطالبه.

– وما هي مطالبه؟

– أن تسلم له في الحال إلهة الجمال والحب «فريا» الشقراء.

فما تمالك «ثر» أن صاح: «فريا»؟

– نعم! ليجعل منها جاريةً له.

– هذا مستحيل.

– أفهمته ذلك! فقال إن لم تحضروا إليَّ «فريا» بأيديكم فانتظروا إغارتي لآخذها بنفسي.

– «فريا» الجميلة! هذا مستحيل!

صاح بهذا القول الإله «ثر»، ونهض يمشي في المكان ثائرًا فاهتزت تحت أقدامه السحب، فقال السفير: فلنسألها، فلعلها ترضى أن تبذل نفسها من أجلك.

فقال «ثر»: يا للعار! أوَأقبل أنا هذا؟ ماذا يبقى لنا إذا ضحينا بتلك الإلهة التي تنثر في أرضنا الحب والرحمة والحرية والجمال؟ وما قيمة الحياة بغير هذه الأشياء؟

فأطرق السفير قائلًا: حقًّا. لا قيمة للحياة بغير هذه الأشياء.

– هي وحدها التي جعلت في أرضنا البشر أبطالًا، والأبطال آلهة!

– نعم! وهي وحدها التي تميز مملكتنا النبيلة عن مملكة ذلك الجبار الهمجي! لكن ...

– لكن ماذا؟

– ينبغي أن نذكر دائما أننا إذا لم نسلم لهذا العملاق بمطالبه فإنه يأتي ويطأ أرضنا الحرة الجميلة بأقدامه الوحشية!

فصاح «ثر» بصوت دوَّى في المكان: فلندافع عن أرضنا، ولندافع عن إلهة الحب والجمال بكل ما لدينا من قوة!

فقال السفير: لا تنس أنك قد جُرِّدت من القوة.

فأطرق «ثر» مليًّا. ثم رفع رأسه وقال: أين «فريبا»؟ أريد أن أرى «فريبا» الجميلة!

فقال أحد الحراس الأتباع: إن «فريبا» إلهة الحب والجمال قد خرجت منذ الفجر تجوب الغابات والأدغال! وتنثر بسماتها على البشر، وتودع أسرارها قلوب الآلهة والأبطال!

ولكن حارسًا آخر تطلع من النافذة ثم صاح: ها هي ذي إلهة الحب والجمال قد عادت من نزهتها في مركبتها المرصَّعة باللآلئ، تجرها قطتان ناصعتان، في لون النرجس والياسمين!

ودخلت «فريبا» فانحنى لها الجميع إجلالًا. واستقبلها «ثر» قائلًا: جئت في الحين المناسب.

فنظرت إليه مليًّا ثم قالت: أرى في وجهك شيئًا ذا خطر.

– نعم يا «فريبا». لقد عاد السفير.

– عاد السفير، وما الذي جاء به؟

فليخبرك هو بما جاء به. تقدم أيها السفير.

فجمد السفير في مكانه وعقد الحرج لسانه. فغمغم: أرجو من «ثر» أن يتولى ذلك عني.

فقال الإله: خجلت من عرض تلك المطالب! حقًّا إنها لمذلة تشق على نفس كل حر!

فقالت «فريبا» في قلق: أي مطالب؟

فأجاب «ثر»: مطالب الهمجي الطاغية. لقد وضع شروطًا قاسية ... قاسية.

– ما هي؟ أخبروني!

فصمت «ثر» لحظة ونظر إلى عينيها الجميلتين طويلًا. ثم قال:

يطلبك أنت، ويريد أن يجعل منك جاريةً له!

فوجمت إلهة الحب والجمال. وشحب لونها. ولبثت جامدة كالتمثال. وتحركت أخيرًا. ولفظت صيحة ألم وغضب: أنا؟ أنا جارية لعدو «أودين» إله الشعر والخير! أنا أوضع تحت أقدام عدو النوع البشري! أنا أذهب إلى أرض الغدر والخيانة والوحشية!

فهدأ «ثر» من روعها وقال: ذلك ما رأيته أنا أيضًا مستحيلًا.

– نعم؛ هذا مستحيل. ولن أرضى هذا العار أبدًا، ولن ترضاه الآلهة جميعًا، ولن ترضاه البشرية النبيلة. ولو كان فيه رد مطرقتك!

وغادرت المكان، وذهبت مسرعة، تاركةً الجميع في إطراق وتفكير، ولم يدرِ «ثر» ما يصنع.

وتملكه شيء من القنوط. ولكن من حوله تصايحوا قائلين:

فلنحارب! فلنحارب! ولنذُدْ عن «فريبا» مهما يكن من أمر. إنه لعار أبدي أن نترك «فريبا» لهذا العملاق.

فرفع «ثر» رأسه وقال: نعم! فلنحارب لكن ... أين السلاح؟

فقال أحد الذين حوله: فلنلجأ إلى سلاح الدهاء.

وقال آخر: لقد لجأ ذلك الغادر إلى الخديعة! فلنقاتل الخديعة بالخديعة.

وصاح صوت من بين الجمع: لم لا نلجأ إلى ذلك الداهية البارع «لوكي»؟ فهو بذكائه قدير على حل المعضلات.

فأشرق الإله «ثر» بالأمل وصاح: أصبت. لقد كنت نسيت هذا الحاذق الماهر. أحضروه.

فذهبوا إلى «لوكي» وأتوا به. وأخبره «ثر» بما حدث، وبما كان من أمر مطالب العملاق، فتفكر «لوكي» ساعة، وهرش لحيته الطويلة، ثم قال: عندي وسيلة ناجحة تحل لكم المعضلة.

فقال الإله «ثر» وجميع من حوله في صوت واحد: ما هي؟

فقال «لوكي» في صوت رزين متئد: أن تقبلوا مطالبه! وأن تسلموا له «فريبا».

فصاح «ثر» حانقًا: أهذه هي الوسيلة التي حلت المعضلة!

فقال «لوكي» في هدوء: نعم، والآن دعوني أشرح لكم كيف ترسلونها ...

فقاطعه الإله: لا نريد أن نسمع منك شرحًا أكثر من ذلك! أيها المخرف الأخرق!

– بل اسمعوا: إننا سنعلن قبولنا للمطالب، وسنرسل «فريبا» ولكن «فريبا» التي ستذهب هي شخص آخر قد تنكر في زيها وهيئتها.

فهدأ ثائر الإله. ونظر إلى «لوكي» راضيًا وقال: ومن هذا الآخر الذي يتنكر في زي «فريبا»؟

فأشار لوكي بأصبعه إلى «ثر» قائلًا: أنت نفسك.

أنا؟

– نعم؛ أنت، وسأذهب أنا معك.

وضعت هذه الخطة في الحال موضع التنفيذ. وأعلن السفير أن «ثر» قد رضي بشروط العملاق ... وأن «فريبا» ستُرسَل إلى أرض العمالقة.

وتنكر «ثر» في زي إلهة الحب والجمال ومضى في صحبة «لوكي» حتى بلغا مملكة «ثريم» العملاق. فاستقبلهما بالترحاب. وأعد لهما وليمة عظيمة! حوت فاخر الطعام وجيد الشراب. فجعل «ثر» يأكل أكلته الخليقة ببطل، فاسترعى ذلك التفات العملاق. فمال على «لوكي» وهمس في أذنه دهشًا متعجبًا: انظر! إن إلهة الحب والجمال قد أكلت ثورًا بأكمله!

فقال «لوكي»: إنها لم تطعم شيئًا طوال أيام الرحلة.

فسكت العملاق. ثم عاد فألقى نظرة أخرى على «ثر» وهمس في أذن «لوكي»: انظر! انظر! إن إلهة الحب والجمال قد أكلت حوتًا من السمك!

فقال «لوكي»: إن طعامك شهي لذَّ لها.

فصمت العملاق. ثم أبصر «ثر» يشرب، فعطف على «لوكي»:

– انظر! انظر! إنها قد شربت ثلاثة أدنان من الخمر!

فقال «لوكي»: إن سرورها برؤيتك قد حبب إليها الشراب.

غمغم العملاق وقال كأنه يخاطب نفسه:

ثور وحوت وثلاثة أدنان خمر! إن إلهة الغرام والجمال تعشق الأكل والشرب فيما أرى.

فسمعه «لوكي» وقال له: إن عشق الأكل والشرب نوع من العشق على كل حال.

وجعل العملاق يتأمل «ثر» عن كثب ويقول:

وددت لو تخلع نقابها لأمتع عيني بجمالها!

فبادره «لوكي» قائلًا: إن تقاليد الحب والغرام تقضي بأن يقدم المحب هدية لحبيبه عند كشف النقاب.

فقال العملاق من فوره: إني أقدم إليها ما تشاء.

فقال «لوكي» في لباقة: فلتكن هديتها إذن «المطرقة» الفضية التي من أجلها طلبتها.

– فكرة صائبة.

وأمر العملاق فحملت «المطرقة» وأحضرت، فأمسك بها ووضعها عند أقدام «ثر» المتنكر. ثم نظر إلى عينيه خلف النقاب، فتراجع وهمس في أذن «لوكي» قلقًا: ما بالي أرى عينَي إلهة الحب والجمال تشعان ببريق حاد مخيف وتضيئان بشيء كأنه جمر ولهب.

فقال «لوكي» في ابتسامة غريبة: لأنها شديدة الشوق إلى …

ولم يتم عبارته؛ فقد كانت قبضة تلك الجميلة الوهمية قد امتدت إلى المطرقة الفضية وقذفتها على الجبار. فتحطمت أعضاؤه تحطيمًا، وتناثرت أجزاؤه في الجو كأنها غبار.

وخلع «ثر» رداء «فرييا» الجميلة، ورجع بمطرقته يتبعه «لوكي» الحاذق الأمين، إلى أرض الجمال والحب والحرية، وقد تم لها وللبشرية: الطمأنينة الدائمة والنصر الأبدي … ذلك أن الحكمة العليا للوجود لا يمكن أن تمنح الانتصار الخالد لغير الجمال والحب والحرية.

# صلاة الملائكة

إلى أصدقاء الإنسانية

## المنظر الأول

(في السماء ... ملكان من الملائكة.)

**الملاك الأول:** انظر، ما هذا الدخان الصاعد إلينا من الأرض؟
**الملاك الثاني:** هم البشر يحرق بعضهم بعضًا.
**الملاك الأول:** أتراهم نسوا قول إلهنا لقابيل: «ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إليَّ من الأرض، فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتَقبل من يدك دم أخيك!»
**الملاك الثاني:** وما ترى الأرض قائلة وهي تفتح اليوم فاها لتقبل لججًا متلاطمة من دماء مليون هابيل!
**الملاك الأول:** يا للويل! أوَنظل نحن في عليائنا نطل عليهم في سكون؟
**الملاك الثاني:** وما في مقدورنا أن نصنع لهم؟
**الملاك الأول:** نهبط إليهم لنرد إلى عقولهم الصواب؛ ونفتح بصائرهم على نور الحق.
**الملاك الثاني:** إنهم سُكارى لا يبصرون ولا يصغون ولا يعون.

(ترتفع إلى السماء أصوات صلاة.)

**الملاك الأول:** أتسمع؟ ما هذه الأصوات الجميلة الصاعدة إلينا من الأرض؟
**الملاك الثاني:** تلك صلاة جامعة يتوجه بها إلى السماء بعضُ العقلاء.

**الملاك الأول:** أصغ. إنها صاعدة من ثلاث جهات: من الشرق ومن الغرب ومن وسط الأرض أوَبعد ذلك لا تريد منا أن نحرِّك ساكنًا، نحن أهل السماء؟

**الملاك الثاني:** قلت لك لن تستطيع لهؤلاء البشر شيئًا.

**الملاك الأول:** وهذه الدعوات الخارجة من قلوب نبيلة؟ أتغلق من دونها الأبواب؟ ألا ينبغي أن تجد إلى أسماعنا سبيلًا وفي أرواحنا مستقرًّا؟ بالقسوة أهل السماء إن ردوا هذه الدعوات وصدوا هذه الصلوات، وتركوها تسقط على رءوس أصحابها الراكعين أصداء باردة جوفاء! إني ذاهب بمفردي.

**الملاك الثاني:** تهبط إليهم؟

**الملاك الأول:** نعم؛ ملبيًا النداء، وإذا لم أستطع لهم شيئًا. فلأعش على الأقل بينهم أحمل نصيبًا من العذاب مثل فرد منهم؛ فرد من بسطاء الشعب لا يملك غير قلب.

**الملاك الثاني:** أخشى عليك منهم!

**الملاك الأول:** لا ينبغي لك أن تقول ذلك. وداعا!

**الملاك الثاني:** إلى الملتقى!

## المنظر الثاني

(غابة في أوروبا ... الملاك الأول في هيئة قروي بسيط يجلس على حافة جدول تعبا حائرًا.)

**الملاك:** آه. ها هنا على الأقل مكان لا تلاحقني فيه أصوات التدمير والتخريب والانفجار. لقد صدق رفيقي. إن مجرَّد الهبوط إلى هذه الأرض كالنزول إلى أسفل طبقات الجحيم! (يسمع صوتًا في ماء الجدول فيصيح) من هنا؟

(تظهر فتاة فقيرة من بين الأشجار تحمل متاعها وفي يدها إناء ملأته من الجدول.)

**الفتاة** (في خوف)**:** من أنت؟

**الملاك:** أنا ... أنا آتٍ من المدينة.

**الفتاة:** أنا أيضًا آتية من المدينة. إنك فيما أرى تعب. تسمح لي أن أقدم إليك قليلًا من ماء الجدول؟

**الملاك:** لا. شكرًا لك. إني متعطش إلى قليل من الهدوء.

**الفتاة:** ها هنا مكان هادئ.

**الملاك:** نعم.

**الفتاة:** سأذهب لئلا أزعجك.

**الملاك:** بل ابقى واجلسي وحدثيني أيتها الفتاة، لماذا تهيمين وحدك في هذه الغابة الموحشة؟

**الفتاة** (تدمع عيناها)**:** لم يبقَ لي أهل.

**الملاك:** لا تبكي.

**الفتاة:** ماتت أمي مريضة ولم نكن نملك ثمن الدواء، وقد لحق بها أبي. أما إخوتي فأخذتهم الحرب ولا أدري أفي الأحياء هم أم في الأموات.

**الملاك:** ولماذا يقتتلون؟

**الفتاة:** لست أدري.

**الملاك:** وماذا أنت صانعة؟

**الفتاة:** أود لو أجد عملًا أرتزق منه، ألا تستطيع أن تعطيني عملًا يا سيدي؟

**الملاك:** أنا؟!

**الفتاة:** هناك كثيرون مثلنا لا يجدون طعامًا ولا دواءً ولا مأوًى.

**الملاك:** وا أسفاه!

**الفتاة:** ماذا بك يا سيدي؟

**الملاك:** لا شيء.

**الفتاة:** صوتك ضعيف ووجهك شاحب، إنك جوعان من غير شك.

**الملاك:** لا تهتمي لأمري.

**الفتاة** (تخرج من حقيبتها تفاحة)**:** كُلْ هذه التفاحة، لقد قطفتها فجر اليوم من شجرة تفاح برية في مدخل الغابة. إنها لم تزل خضراء ولكن عصيرها حلو شهي.

(الملاك ينظر إليها طويلًا.)

**الفتاة:** لماذا تنظر إلى هكذا؟

**الملاك** (يتناول التفاحة ويبقيها في يمينه)**:** شكرًا لك أيتها الفتاة!

**الفتاة:** لماذا لا تأكل؟

**الملاك:** لقد طعمت ورُويت.

**الفتاة:** متى؟

**الملاك:** الآن؛ من رحمة قلبك.

**الفتاة:** بل كلْ. إن الرحمة وحدها لا تكفي طعامًا لنا.

**الملاك:** إنها هي كل طعامي وشرابي.

**الفتاة:** آه يا صديقي الطيب القلب، أتأذن لي أن أدعوك صديقًا!

**الملاك:** إنك لتضيئين روحي بالفرح.

**الفتاة:** هلم نسير معًا في هذه الغابة لعلنا نهتدي إلى بغيتنا عفوًا. ما أشد أثرتي! إني ما سألتك عن حالك.

**الملاك:** إني ... إن بغيتي هي أن أراك في خير. هلمي نسير، ما أجمل الأرض لو استطاع الإنسان فيها أن يبصر وأن يحب وأن يجعل الرحمة تتدفق من نفسه تدفق الماء من هذا الجدول!

**الفتاة:** انظر أيها الصديق! هذا الطير الأخضر الذي يرد ماء الجدول، إن بجانبه أرنبًا وحشيًّا، أتراه؟ إنه خلف العشب، وإنه يشرب هو الآخر، لكأني بهما صديقان.

**الملاك:** نعم ... نعم.

**الفتاة:** اسمع، الآن وقد احتسى الطير من كأس النهر، ها هو ذا يفتح منقاريه ويغرد.

**الملاك:** وهذا الأرنب لم يقفز ولم يهرب، إنه كالمعتاد الإصغاء إلى صديقه. انظري أذنيه وقد تفتحتا كأنهما زنبقتان؛ وعينيه وقد لمعتا كأنهما فيروزتان!

**الفتاة:** أتدري ماذا يقول هذا العصفور؟

**الملاك:** لا يمكن أن يكون فيما يقول غير الخير والسلام والأمل.

**الفتاة:** أصبت. إنه يخاطب هذه الزهرة البرية التي ما زال يقطر منها الطل.

(تغني):

يا بسمة الصبح للكائنات!
هذا الندى ليس قطرة ماء.
يا زهرة الأمل للكائنات!
إن دمعك دمع السماء.

**الملاك:** غنيها مرة أخرى.

**الفتاة:** ماذا بك؟ أرى في عينيك عبرة تلمع أيها الصديق!

**الملاك:** غني مرةً أخرى «إن دمعك دمع السماء» أصبتِ ... أصبت يا صديقتي اللطيفة!

**الفتاة** (تنظر إليه مليًّا)**:** رباه!

**الملاك:** لماذا تطيلين النظر إليَّ!

**الفتاة:** لست أدري.

**الملاك:** لا تراعي، هلمي نسير. هاتي يدك!

**الفتاة:** إني لم أسألك عن اسمك؟

**الملاك:** وأنا أيضًا لم أسألك عن اسمك. ما نفع الأسماء؟ لقد عرفت عنك كل ما ينبغي أن أعرف.

**الفتاة:** وأنا أيضًا (يسمعان صوتًا يقترب).

**الملاك:** مَن المقبل؟

**الفتاة** (تنظر)**:** هذا راهب فيما أرى.

(يظهر راهب يحمل متاعه فوق منكبيه.)

**الراهب:** مَن أنتما؟

**الملاك:** من أين أنت قادم أيها الراهب؟

**الراهب:** من الويل الأكبر، والليل الأبهم، والخطب الأعظم الذي حاق بالبشر. هنالك حيث يمطر الإنسان أخاه الإنسان نارًا محرقة دونها نار جهنم!

**الفتاة:** اجلس يا أبي، إنك متعَب.

**الراهب:** اسقيني شربة من ماء.

**الفتاة** (تسقيه من الإناء وتعطيه تفاحة من حقيبتها)**:** اشرب واطعم واهدأ نفسًا.

**الملاك:** لماذا يقتتلون؟

**الراهب** (وهو يأكل)**:** لأنهم يعبدون اليوم إلهًا جديدًا يُحل قتل الشعوب ويأمر بشريعة الأقوى ... إلهًا ذا مخالب وأنياب مصفحة بالصلب والفولاذ.

**الفتاة:** نعم، يا للبلاء!

**الملاك:** وأنت أيها الراهب. ماذا تنتظر للذود عن الإله الحقيقي الذي يأمر بشريعة العدل والمحبة والإخاء البشرى.

**الراهب:** بماذا أذود؟

**الملاك:** بسلاحك القدسي؛ الحق.

**الراهب:** الحق! إني أنتظر إلى أن ينبت للحق أنياب.

**الملاك:** لن ينبت للحق أنياب، ولا ينبغي له؛ لأن الحق نور ينفذ إلى القلوب.

**الراهب:** أما سمعت أن سلطة «القوة» تطفئ اليوم كل نور، سواء ما أشعَّ في المدن أو الطرقات أو القلوب؟

**الملاك:** أهذا كلام رجل الدين؟

**الراهب:** من أين أنت هابط أيها الرجل؟ إن الأديان ذاتها قد وقعت اليوم في يد القُوَى الطاغية، تدَّعي حمايتها، وتضع عليها رايتها كأنها قطع من الأرض!

**الملاك:** لا تدع الشك يُداخلك في صميم رسالتك أيها الراهب، فيا ضيعة الآمال إذا حدث ذلك! إن كل هذا التقتيل والتحريق والتدمير الذي أصاب الأرض لأقل خطرًا عليها من تدمير الإيمان بسلطان الحق.

**الراهب** (يطيل النظر إلى الملاك)**:** من أنت أيها الرجل الساذج؟

**الفتاة:** لا تختلفا، خيرٌ لنا أن نتجه ثلاثتُنا صوب السماء وأن نسألها المعونة على إطفاء نار الشر وإقرار الخير بين البشر.

**الراهب:** أنت أيضًا أيتها الفتاة البسيطة، تحسبين السماء أصواتنا الثلاثة الضعيفة وهي التي لم تسمع دوي المدافع وانفجار القنابل!

**الفتاة:** أحقًّا قد تخلت عنا السماء يا أبي؟ أوَقد تركتنا وجهًا لوجه أمام قسوتنا ووحشيتنا وآثامنا؟ أمَا مِن رجاء؟ أمَا مِن عزاء؟ تكلم أيها الراهب، يا أبتاه، متى نستطيع أن نهتف من قلوبنا: «ترنمي أيتها السموات وابتهجي أيتها الأرض، لتشدُ الجبال بالترنم؛ لأن الرب قد عزى شعبه وعلى بائسيه يترحم.»

**الراهب:** كفكفي دمعك أيتها البُنَية!

**الملاك:** نعم. ابسمي أيتها الصديقة اللطيفة.

**الفتاة:** أنت أيضًا في عينك دمعة.

**الملاك:** ابسمي وغني.

**الفتاة** (باسمة)**:** أغنية الزهرة البرية؟

**الملاك:** نعم.

**الفتاة** (تغني)**:**

يا بسمة الصبح للكائنات!
هذا الندى ليس قطرة ماء.

**الملاك** (مكملًا):

يا زهرة الأمل للكائنات!
إن دمعك دمع السماء.

**الراهب** (يصيخ السمع): أصغيا ... ألا تسمعان حفيفًا بين الشجر؟
**الفتاة:** نعم!
**الملاك** (ينظر): هذا رجل هائم على وجهه.
**الراهب:** إنه طريد آخر.

(يظهر رجل يحمل متاعه وعصاه ويترنح قليلًا.)

**الرجل** (يقف أمام الثلاثة متأملًا): فتًى وفتاة وراهب! وإذا اجتمع راهب وفتًى وفتاة فمعناه زواج يعقد؟ أأنا مخطئ أيها السادة؟ ولقد كان ينقصكم واحد؛ الشاهد (يشير إلى نفسه) وقد حضر، وخمر وكئوس (يخرج زجاجة وكأسًا من بين متاعه) وقد حضرت!
**الراهب:** مَن أنت أيها المخلوق؟
**الرجل:** عالم في الكيمياء.
**الراهب:** أوَكُل سِكِّير يحمل زجاجة يستطيع أن يدَّعِي علم الكيمياء؟
**العالم:** أوَكُل من يحمل زجاجة تستطيع أن تدعوه سِكِّيرًا أيها الراهب؟
**الراهب:** أوَتطمع في أن أدعوه قديسًا؟
**العالم:** إن دعوتني كذلك فإنك لن تعدو الحقيقة بكثير ولكني أكتفي منك بأقل من ذلك. ادعني فقط «رجلًا ذا ضمير».
**الراهب:** إنك في عُرف السماء رجل مرتكب لمعصية.
**العالم:** آه، دعنا من قاموس حرفتك وكلماتك المحفوظة أيها الراهب. حسبك الفتى والفتاة «زبونين» فصب على رأسَيهما مما في جعبتك. أما أنا فاتركني وشأني. فإني ما جئت هذه الغابة إلا لأني رجل ذو ضمير. ألا تُصدِّق؟ ألا تُصدِّقون جميعًا؟
**الملاك:** إني أرى نقاء ضميرك.
**العالم:** ها هو ذا رجل طيب القلب كريم النفس. إليك وحدك يا هذا أوجه الكلام. فإني واثق من أنك تفهمني. أمَّا بقية الناس ...
**الملاك:** نعم. إني أفهمك.

**العالم:** قبل كل شيء ثق أني عالم في الكيمياء.

**الملاك:** إني أثق.

**العالم:** الآن هات يدك وخذ كأسًا.

**الملاك:** لا. لا. شكرًا. إني ... إني لست عطشان.

**العالم** (يجرع)**:** أما أنا فأريد أن أملأ رأسي خمرًا لأقتل العلم غرقًا. لا تحسب أني خرجت عن وقار العلماء. لم يبقَ للعلم ولا للعلماء وقار.

**الملاك:** لماذا؟

**العالم:** تلك قصة طويلة لم أجئ لسردها الآن. لا تذكرني بما كان أيها الرجل.

**الملاك:** ربما استطعت لك شيئًا.

**العالم:** أنت؟

**الملاك:** إني رجل بسيط، ولكني أستطيع أن أفهمك. لأني أحس ما في نفسك. وأتألم لألمك.

**العالم** (يلتفت إليه وينظر مليًّا)**:** من أنت؟ إنك فيما أرى رجل فقير بائس شريد! نعم. أنا أيضًا تألمت لك يومًا لك ولأمثالك من ملايين البائسين، ومن أجل ذلك طردوني واضطهدوني. ومن أجل ذلك أنا الآن معكم في هذا المكان.

**الفتاة:** من أجل الفقراء والبائسين!

**العالم:** جميعًا، وأنت معهم، وهذا الراهب أيضًا، لقد أنفقت عشرين عاما أفكر فيكم. عشرين عامًا أضع مشروعًا لإسعادكم أيتها المخلوقات المسكينة. إن العلم كان يستطيع القضاء على شقائكم، وإزالة جوعكم ومرضكم وعريكم، وإبدال جحيمِكم جنةً واسعة. لقد أوصلتني الكيمياء إلى نتائج عظيمة بنفقات مقبولة. ولكن ... إليكم المهزلة: جاء يوم فإذا الزعيم الطاغية يطلبني ويقول لي: «اطرح من رأسك هذه البحوث الخرافية ووجه علمك إلى طريق المجد.» فقلت له «وما هو طريق المجد؟» فأجابني صائحًا: «نريد قنابل قنابل، نريد مدافع مدافع، نحن نريد من كيميائك أن تحول اللبن إلى قنابل والزبد إلى مدافع، وأنت تريد أن تحول اللبن والزبد إلى أفواه الحمقى والمغفلين أمثالك أيها العالم الأخرق!»

**الملاك:** اللهم رُحماك!

**العالم:** أرأيتم كيف تبدد حلمي أيها الإخوان؟ والآن ها أنا ذا قد فقدت إيماني بسمو رسالة العلم! آه لعنة الله على العلم الذي يرضى أن ينتزع الطعام من أفواه البشر ليضعه في أفواه المدافع! (يجرع كأسه).

**الملاك:** لا ينبغي أن تيأس.

**الراهب:** أيها الرجل الساذج. متى يكون اليأس إذن؟

**الملاك:** مهلًا. مهلًا. لا تفزعوا كل هذا الفزع أمام قوة الشر.

**العالم:** أيها الفتى إنك لا تدرك مدى قوة الشر. إن عودًا واحدًا من الثقاب يستطيع أن يحرق مدينة، وإن طاغية واحدًا ألهب أمته بحمى التدمير وألقى بكل مالِها في إعداد أدواته قد استطاع أن يلهب في عين الوقت جيرانَه بالعدوى، فجيرانَ جيرانه ثم العالم أجمع. وإذا كل بلاد الأرض تلقى كنوزها وغذاء أبنائها في هذا الأتون. وإذا مليارات المليارات تتدفق من مشارق الأرض ومغاربها في هذا السبيل الجهنمي. لم تعُد الإنسانية جمعاء تفكر في غير آلات الخراب، وإنفاق مليارات المليارات من أجلها. وأنا الذي كنت أحلم بمليار واحد لإسعاد البشر أجمعين، كل أنهار الذهب التي تنبع من قلب الأرض تصب الآن مواد منصهرة لتحطيم الأرض. هذه الحمى الخبيثة التي أصابت الآدميين كافة هي ككل حمة منشؤها جرثومة، جرثومة واحدة في شكل طاغية. دخل جسم الدنيا الهادئة المطمئنة فأحدث فيها تلك الإفرازات السامة والاهتزازات الهستيرية التي قد تؤدي بها إلى الانحلال، فالاحتضار، فالموت.

(يسمع صوت انفجار.)

**الفتاة** (منفزعة)**:** ما هذا؟ أتسمعون؟

**العالم:** تلك قنبلة سقطت في الغابة.

**الراهب:** صه! أسمع أزيز طائرات.

**الفتاة:** إلهي، أوَلن يتركوا حتى الغابات النائمة الباسمة.

**الراهب** (ينظر إلى السماء صائحًا بقول الكتاب المقدس)**:** «استيقظي! استيقظي. البسي درع القوة يا ذراع الرب. استيقظي كما في أيام القِدَم ... ألست أنت طاعنة التنين؟ ألست أنت مجففة البحر ومياه الغمر العظيم، الجاعلة أعماقه طريقًا لعبور المفديين؟»

**الملاك** (مرتلًا)**:** «أنا. أنا هو معزيكم، من أنت حتى تخافي من إنسان يموت ومن ابن الإنسان الذي يُجعل كالعشب؟»

(انفجار يدوي دويًّا عظيمًا.)

**العالم:** إليكم قنبلة انفجرت قُربنا!

**الراهب:** هلموا نختبئ قبل أن تصيبنا شظية.

**العالم:** لن نختبئ، يريدون حياتي، فليأخذوها فقد أخذوا خير ما فيها وهي حريتي العلمية.

**الفتاة:** وأنا أيضًا لن أختبئ؛ فقد أخذوا أهلي.

**الراهب:** وأنت أيها الفتى؟

**الملاك:** أنا هنا في خدمتكم.

**الراهب:** لست أنا إذن الذي يبكي جسده. فلنثبت جميعًا وليأخذوا إذا شاءوا هذه الرمم والأشلاء.

**العالم:** صدقت هي رمم وأشلاء بعد أن تجردت من الحرية والتفكير والعقيدة والإيمان والهناء بل ... حتى الآدمية جردونا منها. كل شيء أخذوه ليجعلوه وقودًا لتلك النيران التي أشعلوها كي تُظهِر أسماءَهم الخاملة مضيئة في عين التاريخ.

**الراهب:** التاريخ! التاريخ هذا الدَّنُّ الذي صنعتموه أنتم بأيديكم أيها العلماء وملأتموه بخمر الانتصارات الدموية لتُسكِروا به أولئك السفاكين والطغاة، فأفرَغوه من أفواههم بدورهم في نفوس الرعايا والشعوب!

**العالم:** وأنتم يا رجال الدين، ألم ترضوا أحيانًا أن تخلعوا أردية القداسة على مجازر أولئك السفاكين والطغاة؟

**الملاك:** كفى تنابذًا! لماذا لا تتفقان؟ كلاكما مؤمن، وكلاكما راهب؛ فما الدين إلا إيمان القلب وما العلم إلا إيمان العقل!

**العالم:** أصبت. كفى تنابذًا بين العلم والدين منذ مئات السنين! كفى!

**الملاك:** آه لو اتحد العقل والقلب من قديم ضد الغريزة الحيوانية لكان للإنسانية اليوم شأن آخر.

**الراهب:** لقد سخروا منا طويلًا هؤلاء العلماء وقالوا إنهم فوق الإنسانية لأنهم يبحثون عن الحقيقة.

**العالم:** ليس هناك علم فوق الإنسانية، تلك عقيدتي دائمًا، ولقد قلتها لزملائي يوم حاكموني وجردوني من شاراتي وألقابي وقبلوا هم أن يخدموا الطغيان، صحت فيهم: ينبغي أن يكون العلم إنسانيًّا وإلا وقع في الحيوانية؛ لأن ما خرج من يد أحدهما وقع

في مخلب الآخر. ولا شيء ولن يكون شيء غير ذلك فوق هذه الأرض، آه، إنكم لا تدركون مدى قوة الشر أتعلمون كم بلغت تكاليف الحرب الكبرى الماضية؟ اسمعوا قول زميلي الدكتور بطار الأمريكي الذي قضى سنوات يجمع الإحصاءات، لقد ذكر في تقريره الذي قدمه لمؤسسة روكفلر أن ما أنفق على تلك الحرب في سنواتها الأربع لو أنه صُرِف في التعمير بدلًا من التدمير لكان من المستطاع أن يخصص لكل أسرة في العالم منزل صغير بحديقة جميلة؛ وأن تنشأ في كل مدينة يزيد سكانها على عشرين ألفًا مكتبة نفقاتها مليون جنيهٍ وجامعة نفقاتها مليون جنيهٍ أيضًا، ثُم يبقى بعد ذلك مبلغ عظيم يكفي لإنشاء المستشفيات في كل بقاع الأرض! ولكن ... ولكن البشر لم يجرءوا بعد على تحمُّل بعض هذه النفقات من أجل خيرهم وسعادتهم!

**الملاك:** هات يدك أيها الراهب.

**الراهب:** ماذا تفعل؟

**الملاك:** أضعها في يد العالم.

**الراهب:** نعم، ضعها في يده. إلهي الذي في السموات، إني أحس إيماني الكامل يعود إلى قلبي كما تعود النعجة الضالة إلى الحظيرة!

**الملاك:** ثق يا أخي الراهب أن القلب والعقل وهما المَلَكتان النورانيتان العلويتان في الإنسان لا يمكن أن يمكثا طويلًا في أسر المخالب والأنياب.

**الراهب:** من أنت أيها الفتى؟ ينبغي أن تقول لنا من أنت؟

**الملاك:** أنا ... إني ذاهب، ينبغي أن أذهب الآن ... لأصنع شيئًا آخر.

**العالم:** أوَتترك الفتاة؟

**الملاك:** إنها بينكما في سلام وأمان.

**الراهب:** أوَلا تنتظر حتى نعقد لك عليها كما قال أخونا العالم؟

**الفتاة** (تدمع عيناها)**:** إني لست به جديرة!

**الملاك** (تدمع عيناه)**:** يا زهرة الأمل لا تبكي فإن دمعك دمع السماء!

**الفتاة:** وداعًا!

**الملاك** (يلوح إليها بالتفاحة في يمينه)**:** يا شجرة الحب للكائنات، لن تفارقني تفاحتك، ولا ذكراك يا ألطف المخلوقات!

(يختفي.)

## المنظر الثالث

(قاعة مؤتمر ... الطاغيتان واقفان وحدهما يتأملان خريطة للدنيا فوق مائدة والأبواب عليهما مغلقة.)

**الطاغية الأول** (يشير بأصبعه إلى جزء من الخريطة): أريد أن أسود هذه الأمم والشعوب!

**الطاغية الثاني** (يشير إلى الجزء الآخر): وأنا أسود هذه الأمم والشعوب!

(يظهر الملاك من خلف إحدى الستائر.)

**الملاك:** الأمم والشعوب خلقها ربها حرة لا تُقتَسم ولا تُستَلب كما تُقتَسم الغنائم والأنعام!

**الطاغيتان** (مذعورَين): من هذا؟

**الملاك:** كيف نسيتما قول الله في التوراة «ها إني أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب أقيم رايتي، هل تُسلَب من الجبار غنيمة؟ وهل يفلت سبي المنصور؟ فإنه هكذا قال الله، حتى سبي الجبار يُسلَب وغنيمة العاتي تفلت، وأنا أخاصم مخاصمك وأخلِّص أولادك وأطعم ظالميك لحم أنفسهم ويسكرون بدمهم كما في سلاف ...»

**الطاغية الأول:** كيف دخل هذا الرجل؟

**الطاغية الثاني** (همسًا): صه! لا تتحرك في يمينه قنبلة يدوية صغيرة على شكل تفاحة!

**الطاغية الأول:** فهمت.

**الطاغية الثاني** (للملاك): وبعد؟ نحن في خدمتك.

**الملاك:** بل أنا الذي في خدمتكما، إذا رضيتما أن تفتحا قلبيكما قليلًا لرحمة السماء!

**الطاغية الأول:** إنك لا شك أخطأت المكان الذي تُفهَم اليوم فيه هذه اللغة!

**الملاك:** إني لم أيأس بعد من فهمكما إياها.

**الطاغية الأول:** بل ينبغي أن تيأس سريعًا؛ فإن لدينا الآن لغةً أخرى وكتبًا مقدسة جديدة أملتها روح شعبنا الجديد ومطالب حياته.

**الملاك:** ما هي مطالب الحياة لشعبكم الجديد؟

**الطاغية الأول:** أن يسود على بقية الشعوب والأجناس.

**الملاك:** وأن يسود عليه هو الشقاء والجوع والظلام!

**الطاغية الأول:** إنه مستعد لبذل التضحية.

**الملاك:** بذل التضحية لمن؟ لك أنت أيها الطاغية؛ لأن تلك هي مطالبك أنت لا مطالب الشعب؛ إذ لا يمكن لشعب أن يطلب من أعماق نفسه حقًّا هذه المطالب، إن ضمير الشعب أبسط وأنقى من ذلك. إنما السيادة والجبروت والطغيان هي مطالب الغرور التي تنبت في رأس رجل واحد، فيُسخِّر شعبه المسكين كله لتحمل أعبائها ويسأله التضحية ويعطيه ثمنها هذه الألفاظ التي تُسكِره ولا تُشبِعه. مَن هو الشعب الحقيقي غير ذلك الحطاب في الغابة والفلاح في الحقل والعامل في المصنع والتاجر في الحانوت والزوجة في البيت. أهؤلاء يطمعون في أن يسودوا الشعوب والأجناس؟ لماذا؟ إنما كل مطالبهم من الحياة أن يجدوا طيب الغذاء وراحة البال والضمير وصحة الجسم والعقيدة وحرية القول والعمل والتفكير ... مطالبهم الحقيقية في الحياة أن يسودوا الشقاء الآدمي لا أن يسودوا إخوتهم الآدميين. وما كان أيسر تحقيق آمالهم النبيلة لو أنكم أيها الطغاة أردتم حقًّا إسعادهم هم، ولكنكم لا تريدون غير إسعاد أنفسكم أنتم بالاستيلاء على ما تحسبونه تيجان المجد الذي يزين جباهكم المظلمة!

**الطاغية الأول** (همسًا لزميله): هذا رجل خطر!

**الطاغية الثاني** (همسًا): لو خاطب الشعب بهذا الكلام. لكن كيف تركه رجالك حرًّا حتى الساعة؟

**الطاغية الأول** (للملاك): هذا كلام بديع، مَن أنت أيها الرجل؟

**الملاك:** إني ... رجل غريب، آتٍ من بعيد.

**الطاغية الأول** (همسًا): لحسن الحظ!

**الطاغية الثاني** (همسًا): إن فيه مع ذلك لسذاجة تدعو إلى الاطمئنان، تستطيع أن تضغط على زر الجرس الداني من إصبعك، لكن مع الحذر.

(يفعل ذلك ويفتح الباب ويدخل بعض الأتباع.)

**الطاغية الأول** (مشيرًا إلى الملاك): هذا السيد النبيل زارنا على غير انتظار ومن غير دعوة.

**كبير الأتباع:** كيف دخل؟

**الطاغية الأول:** هذا ما ينبغي أن تجروا فيه تحقيقًا.

**كبير الأتباع** (يحيط مع رجاله بالملاك): اتبعنا.

**الطاغية الثاني:** عجبًا، إنه لم يقاوم؟
**الملاك:** ماذا هم صانعون بي؟
**الطاغية الأول** (ساخرًا)**:** ما صُنِع بالمسيح قبلك!
**الطاغية الثاني** (ساخرًا)**:** تمجيدًا لقدرك وقدر رسالتك التي بلغتنا!
**الملاك:** آه «لكن هذه ساعتكم وسلطان الظلام!»
**الطاغية الأول** (لتابعه)**:** لا ينبغي لهذا الرجل أن يخالط الشعب لحظة، استجوبوه استجوابًا سريعًا وأعدموه.
**الطاغية الثاني:** حاذروا مما في يده اليمنى.
**كبير الأتباع** (يقبض على يمين الملاك)**:** هذه تفاحة؟
**الطاغية الأول:** حقيقية؟
**كبير الأتباع:** نعم، وما زال عليها ندى الصباح.
**الملاك** (في تضرُّع)**:** لا تأخذوها مني. لا تأخذوها مني!

## المنظر الرابع

(محكمة عسكرية.)

**الرئيس** (للملاك نافد الصبر)**:** وبعد، ألا تريد أن تجيب؟
**الملاك:** لقد أجبت.
**الرئيس:** أصغ إليَّ. من واجبي أن أنبهك مرةً أخيرة إلى سوء المصير إذا أصررت على إخفاء الحقيقة.
**الملاك:** أنا أخفي الحقيقة؟ لماذا؟ إني لا أعرف كيف تُخفَى الحقيقة.
**الرئيس:** لقد سألتك عن اسمك، ما اسمك؟
**الملاك:** اسمي؟ الحقيقة أني لم أفكر في ذلك. لم يكن لديَّ وقت لاختيار اسم من الأسماء، لقد كان ما يشغلني أعظم من ذلك وأجل. ومع ذلك ما الفرق بين اسم واسم، كل الأسماء سواء، اختر لي من الأسماء ما تشاء.
**الرئيس** (يلتفت إلى أعضاء المحكمة حوله يائسًا)**:** ووطنك؟ جنسيتك؟
**الملاك:** عجبًا! هذا أيضًا شيء لم أفكر فيه. إنما أنا على هذه الأرض الجميلة وكفى. ما الفرق بين بقعة وبقعة، وجنس وجنس، كل البقاع والأجناس سواء. اختر لي من البقاع والأجناس ما تشاء.

**الرئيس** (يلتفت إلى من حوله هازًّا رأسه)**:** وأهلك؟

**الملاك:** أهلي! عجبًا ... لماذا تسألوني هذه الأسئلة الغريبة! أهلي؟ كل الناس أهلي؛ لأن كل بني الإنسان إخوة. حتى أنتم يا من تحاكمونني. أنتم أيضًا أهلي. إني أحبكم كلكم. لأني أحب بني الإنسان.

**الرئيس:** كيف دخلت قاعة الزعيمَين؟

**الملاك:** كما دخلت هذه القاعة، وكما دخل هذا الضوء (يشير إلى شعاع الشمس الداخل من النافذة).

**الرئيس:** لقد كان حول المكان حراس.

**الملاك:** لم أرَ حراسًا، ولم يمنعني أحد من الدخول.

**الرئيس:** ولماذا دخلت؟

**الملاك:** لأفتح قلبَي الطاغيتَين.

**الرئيس** (هامسًا للأعضاء)**:** لقد اعترف أخيرًا.

(يلتفت إلى الملاك) تفتح قلبَيهما؟ بأي سلاح؟

**الملاك:** بسلاح الحق المضيء.

(الرئيس يهز رأسه خائب الأمل.)

**الرئيس:** ألم يكن معك سلاح آخر؟

**الملاك:** لا أستطيع أن أحمل غيره.

**الرئيس:** حمل هذا السلاح على كل حال يكفي وحده لإدانتك.

هل لك شركاء؟

**الملاك:** نعم.

**الرئيس** (يتناول القلم في رجاء.)**:** أملِ عليَّ أسماءهم.

**الملاك:** ضع اسمك في المقدمة.

**الرئيس** (وقد فوجئ)**:** ماذا تقول؟

**الملاك:** وضع أسماء هؤلاء الأعضاء من حولك وهؤلاء الحراس والجنود، وبقية أفراد هذا الشعب وجميع الشعوب. لن تجد ورقًا يتسع لكافة الأسماء، كل من له قلب شريك لي؛ لأن كل قلب يترنم في أعماقه بعين الكلمات وينشد عين الأناشيد. ولكن الآذان لا تسمع من هذا شيئًا لأن هنالك لحظات يطغى فيها صوت الشر على كل الأصوات!

(الرئيس يتشاور همسًا مع الأعضاء.)

**الرئيس** (ملتفتًا إلى الملاك)**:** ألديك دفاع آخر تبديه؟
**الملاك:** دفاع عمن؟
**الرئيس:** عن نفسك بالطبع.
**الملاك:** نفسي؟ أيتها السموات عجبا! أأنا جئت لأدافع عن نفسي؟
**الرئيس:** إذن فقد انتهت محاكمتك. قررت المحكمة العسكرية اعتبار المتهم خطرًا على الأمن وسلامة الدولة وحكمت بإعدامه رميًا بالرصاص قبل غروب شمس هذا النهار.
**الملاك** (كالمخاطب نفسه في دهشة)**:** خطر على الأمن وسلامة الدولة ذلك الذي يقول للناس: حِبُّوا بعضكم بعضًا!
**الرئيس** (في شبه سخرية وهو ينهض)**:** إن المحكمة تأسف لعدم تشرفها بوضعك على الصليب؛ فالصلب ليس عقوبة مقررة في قانون المحاكم العسكرية!

(المحكمة بكامل هيئتها تنفض.)

**الملاك** (بين الحراس يائسًا)**:** إلهي! ما هؤلاء البشر الذين يعدون الحض على تآخيهم جريمة لا تُغتفَر!

## المنظر الخامس

(أمام طابور الإعدام.)

**الضابط** (للملاك)**:** تطلب شيئًا؟
**الملاك:** لا. شكرًا لكم.
**الضابط** (لأحد جنوده)**:** عصب رأسه!

(يتقدم الجندي بعصابة سوداء ليخفي رأس الملاك وعينيه.)

**الملاك** (يقصيه عنه برفق)**:** لماذا تحجبون عني منظر الأرض الجميلة في اللحظة الأخيرة؟
**الضابط:** إنما نحجب عنك منظرًا آخر.

**الملاك:** منظركم وأنتم تسفكون دمي! حتى هذا المنظر لا ينبغي أن تحجبوه عني؛ فإني أعرف كيف أحبكم على الرغم من ذلك وأرثي لكم، أنتم أيها الجنود الذين يصفونكم دائما بـ «الشجعان» تمويها وتضليلًا ليخدعوكم عن حقيقة الحياة الإنسانية، ويغروكم بحياة الكواسر في الغابة «تَقتلون وتُقتَلون» ذلك كل عملكم «المجيد»! وتلك كل حياتكم التي يريدونها لكم على هذه الأرض التي لا تبصرون جمالها ولا تسمعون غناءها؛ لأنهم يغطون رءوسكم وعيونكم بهذه الخوذات الثقيلة!

**الضابط** (صائحًا): كفى. كفى. أمستعد؟

**الملاك:** مستعد. اللهم اشهد أني صنعت من أجلهم ما استطعت!

**الضابط** (يلحظ يد الملاك): ماذا تحمل في يمينك؟

**الملاك** (يرفع يده بالتفاحة في حرص وخوف): لا تأخذوها مني!

**الضابط:** تفاحة؟ ما تصنع بها الآن؟

**الملاك** (متوسلًا): إنها خير ذكرى أحملها من الأرض!

**الضابط** (ينظر في ساعته): أزفت الساعة!

(يصيح في الطابور فيرفع الجنود بنادقهم ويصوبونها إلى صدر الملاك.)

**الملاك:** اللهم اشهد أني لم أُرِد تركهم ولا التخلي عنهم، إنما هم …

(ينطلق الرصاص إلى فؤاده فيقطع عبارته.)

## المنظر السادس

(في السماء … تراتيل الملائكة وصلاة من أرجاء السماء.)

**الملاك الثاني** (للملاك الأول): عُدت إلينا سريعًا!

**الملاك الأول:** ويل لساكني الأرض؛ إن إبليس نزل إليهم وبه غضب عظيم عالِمًا أن له زمانًا قليلًا.

**الملاك الثاني:** ألم أقل لك إنهم لن يصغوا إلينا وإنك لاقٍ منهم ما لقيت؟

**الملاك الأول** (ناظرًا إلى التفاحة في يده): آه … لكن مع ذلك …

**الملاك الثاني:** ما هذه التفاحة؟ أنت أيضًا طردوك من الأرض بتفاحة كما طُرِد آدم من السماء!

**الملاك الأول** (هامسًا مترنمًا): يا شجرة الحب للكائنات. إن دمعك دمع السماء.

**الملاك الثاني:** ماذا بك؟! إنك تعود إلينا بوجه غير الذي ذهبت به.

**الملاك الأول** (يصغي): ما هذه الأصوات والتراتيل؟

**الملاك الثاني:** تلك صلاة يقيمها رفاقك الملائكة؛ فقد علموا أنك على الأرض في خطر.

**الملاك الأول:** من أجلي أنا يصلون! ألا فلتكن صلاة الملائكة أجمعين من أجل أهل الأرض المساكين.

هنداوي